

زهرة خفيف

# التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري قراءة في ظاهرة المثاقفة

دراسة

دار الأوطان

زهرة خفيف

التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري

دار الأوطان

2024

زهرة خفيف

من مواليد الحروش ولاية سكيكدة  
متحصلة على شهادة ماجستير في الادب الحديث والمعاصر من جامعة  
الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية قسنطينة  
متحصلة علي شهادة الدكتوراه في الأدب الحديث والمعاصر من جامعة باجي  
مختار . عنابة

أستاذة محاضرة بكلية الآداب واللغات – جامعة 20 اوت 1955 بسكيكدة  
صدر لها في الشعر

مملكة بلقيس عن دار الهدى 2013

في البدء كانت حواء عن دار الهدى 2014

الرضا والرماد . عن دار الأوطان 2016

تباريح الروح عن دار الأوطان 2016

مقام المهسمسات عن دار الوطن 2019

رحيق الياسمين عن دار الوطن 2019

لازب كطين عن دار الوطن 2020

قطر الندى عن دار الوطن 2020

وفي النقد صدر لها

التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري قراءة في ظاهرة المثاقفة عن دار  
الأوطان 2024

المنهج السوسيو نقدي مقارنة نظارية عن دار الأوطان 2024

الخطاب والمرجع مقارنة في المصطلح عن دار الأوطان 2024

ISBN: 978-9931-593-07-02



9 789931 593072

التحولات الثقافية  
في المجتمع الجزائري  
قراءة في ظاهرة المثاقفة



زهرة خفيف

التحولات الثقافية  
في المجتمع الجزائري  
قراءة في ظاهرة المثاقفة

دراسة

دار الأوطان

إصدارات دار الأوطان 2024.  
ردمك: 02-07-593-9931-978.  
الإيداع القانوني: السادس الأول، 2024.

## جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري قراءة في ظاهرة المثاقفة/دراسة

زهرة خفيف

الطبعة الأولى

القياس: 19/13

دار الأوطان للثقافة والإبداع

الهاتف: 10 23 67 (+213)

البريد الإلكتروني: darelawtan1@gmail.com

## تقديم

تعد الثقافة من المفاهيم الأكثر جدلا، باعتبارها مركبة ومشعبة وتتعلق بدينامية دائمة، وذلك راجع إلى الإنسان نفسه، ونوع العلاقات التي تربطه بالآخر المشابه والمختلف، وكذلك إلى علاقة هذا الإنسان مع البيئة التي يعيش فيها، وحاجياته الكثيفة إلى التطور والتغير المستمر. فلكل ثقافة هوية، ولكل هوية جوهر تعبر عنه خصوصيات متفردة، وتنبتق منه قيم سامية ومثل عليا، هي عنوان الأصالة والعراقة اللتين هما القواعد الراسخة للثقافة، والقواسم المشتركة بين الثقافات الإنسانية جميعا، مهما تكن سماتها وقسماتها وطوابعها، ومهما تتعدد مصادرها ومنابعها وروافدها.

فلكل أمة ثقافة تعبر عن كينونتها، وتعكس طبيعتها، وتسجل عطاءاتها المتراكمة عبر التاريخ الطويل، فتجعل منها أمة ذات خصوصيات تميزها عن الأمم الأخرى. وكذلك هي الثقافة في تميزها عن الثقافات السائدة، سواء في الزمن الواحد، أو في أزمنة متطاولة، وإن كانت تأخذ عنها، وتقتبس منها، وتتلاقح معها، فتتقارب، وتتجاوز، وتتفاعل بطرق متباينة، فتكتسب قوة في المناعة، وقدرة على التناغم مع البيئة، وعلى التكيف مع المحيط

الإنساني العام، وتلك هي طبيعة الثقافة لدى أي أمة من الأمم، وفي كل عصر من العصور.

والتنوع الثقافي ظاهرة اجتماعية تفرض نفسها بشكل جلي، على اعتبار اختلاف العادات والثقافات والأعراف والقوانين المنظمة لكل جماعة اجتماعية معينة، كما أن التداخل والتماس بين عناصر وأجزاء الثقافات هو ميزة العصر الحالي، نتيجة عمليات التواصل الدائمة بين أفراد الشعوب والأمم، وهو ما يساعد على بناء الخبرة والتجربة الإنسانية. غير أن الملفت للنظر أن هذا التداخل يشوبه نوع من التقزيم والإقصاء والاستغلال، حيث تدعي ثقافة الهيمنة والاحتواء لثقافة أخرى، وتتم هذه العملية من قبل ثقافة مهيمنة اقتصاديا، وتحاول نعت ثقافة الشعوب المستضعفة بأنها جامدة وغير قابلة للتطور، بالرغم من رفع شعارات الاحترام والتواصل الثقافي المثمر في إطار الكونية العالمية. فقد مر تشكل الثقافة عبر محطات تاريخية، ولكل مرحلة خصوصيات معينة حسب المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأيدولوجية والعرقية وغيرها، وفي كل مرحلة كانت تتلون بتلوينات العصر التي تحتكم إليها. فقد اهتمت الدراسات الأنثروبولوجية بالأشكال الثقافية البدائية للشعوب والأمم، ولها السبق دراسة الثقافة وتحليل

أصولها بالرجوع إلى الموضوعات البدائية التقليدية، والعلاقات التي تربط بين الناس في إطار البيئة المحيطة بهم، كما اهتمت الدراسات الاجتماعية بعناصر وأشكال الثقافة ودورها في تشكل الجماعات. مما يدفعنا إلى طرح مجموعة من الأسئلة نراها ضرورية مثل: ما مفهوم الثقافة؟ وما أهم الاتجاهات النظرية التي حاولت دراستها وتحليلها؟ وما علاقة الثقافة بالهوية؟ والمقصود بالثقافة والتناسج الثقافي؟



## مفهوم المثاقفة وأشكالها:

إن الحديث عن المثقف والمثاقفة، سواء في الماضي أو الحاضر، في هذه الحضارة أو تلك، وفي هذا المجتمع أو ذلك هو دائما حديث له خصوصيته ودوافعه الإيديولوجية وسياقه المعرفي. فهو إذن حديث نسبي يخفي وراءه ذاتية الباحث وانشغالاته، ليس فقط المعرفية وإنما السياسية والإيديولوجية، وكذا الأسئلة الكبرى التي تعرض نفسها عليه انطلاقا من التحديات والمضلات التي تواجه المجتمع أو الحضارة التي ينتمي إليها. ولذا فإن مسألة المثقف العربي أو التفكير والكتابة في موضوع المثقفين في الحضارة العربية في الماضي أو الحاضر، من طرف الباحثين -عربا ومستشرقين- عرف أكثر من حديث أو خطاب، وكان موضوعا لمقالات عدة، ذهب أصحابها، فيها مذاهب شتى، بحسب انتمائهم وانشغالاتهم السياسية والفكرية والإيديولوجية، وقد ساعد على هذا التنوع حساسية الموضوع وطبيعته وأهميته بالنسبة لراهن المجتمعات العربية الإسلامية التي تواجه عدة تحديات داخلية وخارجية، ويتم التساؤل وسط نحبها باستمرار عن مواقف ومهام المثقفين إزاء هذه التحديات ودورهم في التغيير واستئناف مشروع النهضة أو التجديد والتحديث<sup>1</sup>.

1 إبراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية، ص 240.

## الثقافة والمثقف والمثاقفة وحدود المصطلح:

### مفهوم الثقافة:

عندما نرصد المستويات المتعددة التي يستعمل فيها مفهوم الثقافة فإننا نكشف أن هذا المفهوم له دلالات ومفاهيم عديدة وثرية، فالثقافة هي "مجموعة النشاط الفكري والفني في معناها الواسع، وما يتصل بها من مهارات أو يعين عليها من وسائل، فهي موصولة بمجمل أوجه الأنشطة الاجتماعية الأخرى، مؤثرة فيها، متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها، ليتحقق بذلك المضمون الواسع لها، متمثلا في تقدم شامل للمجتمع في كل جوانب سعيه الحضاري"<sup>1</sup>.

وفي إعلان مكسيكو بشأن الثقافة (يوليو/أغسطس 1982م) المنعقد في إطار جهود المنظمة العالمية (ليونسكو)، عرفت الثقافة بأنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات والثقافة هي التي تمنح الإنسان القدرة على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائنا يتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية والقدرة

1 محي الدين صابر، قضايا الثقافة العربية المعاصرة، تونس 1983م، ص 09.

على النقد والالتزام الأخلاقي، وعن طريق الثقافة نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته كمشروع غير مكتمل، وإعادة النظر في إنجازاته والبحث دون توان عن مدلولات جديدة وإبداع وأعمال يتفوق فيها على نفسه<sup>1</sup>.

والثقافة هي العبقرية الإنسانية، مضافة إلى الطبيعة بغية تحوير عطاءاتها وإغنائها وتنميتها، وتدل أيضا على انكباب الإنسان بصورة منهجية على تنمية ملكاته الفطرية بدراسة الآداب والعلوم والفنون وكذلك بالملاحظة والتفكير. وعلى الصعيد الاجتماعي تدل كلمة ثقافة اليوم على جملة الوجوه الفكرية والأخلاقية والمادية والمذاهب القيمية وأساليب الحياة التي تميز حضارة من الحضارات<sup>2</sup>.

ويعرف إدوارد تايلور الثقافة في كتابه (الثقافة البدائية) الذي نشره في سنة 1971، بأنها "هذا الكل المعقد الذي يتضمن

1 محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة، المثقف العربي وتحديات العوامة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000م، ص 20.

2 لويس دو ليو، الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، ترجمة الدكتور عادل العو، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1982م، ص 09.

المعرفة والاعتقاد والفن والحقوق والأخلاق والعادات، وكل قدرات وأعراف أخرى اكتسبها الإنسان كفرد في مجتمع"<sup>1</sup>.

أما مالك ابن نبي، وبعد أن ينتقد مفهوم الثقافة في المدرسة الغربية والمدرسة الاشتراكية، فإنه يحدد رؤيته لمفهوم الثقافة بقوله: "فالثقافة إذن تعرف بصورة علمية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا، هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد تحدته عملية التركيب التي تجرّها الشرارة الروحية عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات"<sup>2</sup>.

1 محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة، ص 126.

2 المرجع نفسه، ص 127.

فالثقافة وفق هذه المعاني والمفاهيم، هي كل ما يضيفه الإنسان وينتجه في الحياة، فكل المتطلبات العقلية والنظرية التي تقتضيها عملية توظيف وتسخير الطبيعة بما يفيد الإنسان فردا وجماعة، "والوعي والحرية شرطا حيويتها واستقلالها المعرفي من جهة، وهما من جهة أخرى، شرطا وظيفتها النقدية التغيرية. والثقافة بهذا التحديد لا تعود نشاطا معرفيا لا كتناه الحقيقية أو الحقائق المجردة، بمعزل عن الحقائق النسبية الاجتماعية في سياق مهمات التغيير والتحول"<sup>1</sup>.

تسمح التعريفات السابقة باستنتاج ثلاث آليات في عمل الثقافة الأولى نظرية أما الباقيتان فأليتان عمليتان<sup>2</sup>:

- 1- ميل الثقافة إلى أن تكون نسقا من التصورات أو التماثلات للعالم والأشياء، وتعبيرا رمزيا عنها.
- 2- ميلها إلى أن تكون ممارسة طقوسية دفاعية تؤدي وظيفة إعادة إنتاج الوجود، وجود الذات.
- 3- ميلها إلى التعبير عن آلية الإرادة فيها، من حيث يمثل الإخضاع والتكليف ذروة الإفصاح المادي عن تلك الإرادة.

1 لويس دولو، الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، ص 09.

2 محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة، ص 20،

تعد الثقافة من المفاهيم المتشعبة والشائكة، لأنها تحمل دلالات ومعاني كثيرة، وتأبى أن تنحصر في تخصص دون آخر، خاصة في العلوم الإنسانية، حيث أصبحت السياقات التي يظهر فيها هذا المفهوم تتضارب من وقت لآخر، حسب الظروف والأزمنة والتخصصات والمجتمعات والشعوب وحتى من داخل نفس الشعب أو نفس المجتمع، ومن هذا المنطلق، "تشهد مسألة الثقافة، أو بالأحرى مسألة الثقافات، تجددًا يجعل منها مسألة راهنة، سواء على المستوى الفكري، أو على المستوى السياسي. ففي فرنسا، على الأقل، لم يكن الحديث في الثقافة أوسع مما عليه اليوم (بخصوص وسائل الإعلام، أو الشباب أو المهاجرين). وهذا الاستخدام للكلمة، مهما كانت حدود مراقبته، هو في حد ذاته، معطى إثنولوجي"<sup>1</sup>.

وبهذا المعنى، تعد الثقافة معيارًا من معايير التمييز والاختلاف بين الشعوب والجماعات، إذ أن لكل مجتمع طابع ثقافي خاص، وأسلوب عيش معين، بل ومنظومة قيم معينة. لهذا، ساهمت الثقافة بشكل كبير في تحول الإنسان من كائن

1 دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: د. منير السعيداني، مراجعة: د. الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، مارس 2007م، ص 9.

بيولوجي إلى كائن اجتماعي، يتفاعل داخل الجماعة ويعبر عن حاجاته، وقناعاته، وميولاته، وعن طابعه الخاص الذي يميزه عن غيره المختلف عنه.

مفهوم الثقافة يعد من أعقد المفاهيم لأنه استعمل بطرق وأشكال مختلفة بجميع اللغات، إذ أن استعماله يختلف من لغة إلى أخرى، وقد "عرفت الثقافة باعتبارها طريقة كاملة للحياة لدى مجتمع معين، حيث يتم تعلمها وتقاسمها بين أفراد المجتمع. غير أن مفهوم الثقافة من المفاهيم المعقدة. فمثلا (ريموند وليم) أحد أهم المنظرين في الثقافة في كتابه (keyword) يرى أن الثقافة تعد واحدة من أكثر المفردات تعقيدا في اللغة الإنجليزية، فكلمة ثقافة استعملت بطرق مختلفة سواء من جانب علماء الاجتماع أو في الأحاديث اليومية [...]. فالأشياء التي يصنعها الإنسان، ويمارسها هي معطيات ثقافية بينما الأشياء التي توجد أو تحدث بدون تدخل الإنسان تعتبر جزء من عالم الطبيعة"<sup>1</sup>.

لذلك، تعد الثقافة من صنع الإنسان، فهو الذي يخلق معطياتها ومكوناتها التعبيرية استنادا إلى الإطار العام المحدد

1 هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيون للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 2010م، ص 7.

لمجتمعه ووسطه ومعيشه اليومي، من عادات وتقاليد وطقوس ومعتقدات... الخ. إنها متجددة بتجدد إنتاجات وإبداعات الأفراد، وتنعكس على تطور واستمرارية المجتمع، كما أنها هي الموجه لسلوك الأفراد وتدفعهم إلى الاحتكام إلى معاييرها وضوابطها بطريقة قسرية تعسفية، ومن يخرج عن محددتها، في نفس المجتمع، يعد مخلًا بالنظام العام.

أما بخصوص الحقبة التاريخية التي نشأ فيها مصطلح الثقافة والمعنى الأول لها، يرى (دنيس كوش) أن كلمة ثقافة "ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر متجذرة من *Cultura* اللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل وللماشية، وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة"<sup>1</sup>. وقد عرفت الكلمة بعض التغيرات الطفيفة لكنها لم تخرج عن المعنى الفلاحي، مع أنها ارتبطت بمهارات وقدرات الفلاح وطبيعة وحالة الأرض المحروثة، إذ أنه "في بداية القرن السادس عشر، كفت الكلمة عن الدلالة على حالة (حالة الشيء المحروث) لتدل على فعل هو فلاحه الأرض. ولم يتكون المعنى المجازي إلا في منتصف القرن السادس عشر، إذ بات ممكناً أن تشير كلمة (ثقافة)، حينذاك، إلى تطوير

1 دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعداني ط1 بيروت 2007، ص 17.

كفاءة، أي الاشتغال بإنمائها. ولكن ذلك المعنى المجازي ظل غير دارج بكثرة حتى منتهى القرن السابع عشر، ولم يحز على اعتراف أكاديمي، إذ لم يدرج ضمن مواد أغلب قواميس تلك الفترة<sup>1</sup>.

فقد كان الاستعمال الأول لكلمة ثقافة مرتبطا بالحرث والأعمال الفلاحية، خاصة بتطوير قدراته وإمكاناته للسيطرة على الأعمال الفلاحية، وهذا راجع للانشغال اليومي للإنسان، إذ كانت علاقته بالأرض، مصدر عيشه، وطيدة، فتطوره لأعماله وممارساته اليومية الفلاحية هو ما كان يعكس تطور حياته.

أما عن تطور دلالات كلمة ثقافة، التي تغيرت بتغير الأفكار والقناعات وحاجات الإنسان وطريقة عيشه ومستوى نضجه، يرى (دنيس كوش) أن: "التطور الدلالي الحاسم الخاص بالكلمة والذي سمح، لاحقا، بابتداع المفهوم الحديث داخل اللسان الفرنسي، في قرن الأنوار، قبل أن ينتشر بواسطة الافتراض اللساني داخل اللسانين المجاورين (الإنجليزي والألماني)"<sup>2</sup>. فقد كان القرن الثامن عشر، وما عرفه من فتح عظيم على الإنسانية في جميع المجالات، هو القرن الذي نحت فيه المفهوم الحديث للثقافة، إذ ارتبط تطور هذا المفهوم بتطور أوضاع الإنسان

1 المرجع نفسه، ص 17.

2 المرجع نفسه، ص 16.

وحاجاته في جميع المجالات، وأصبح الإنسان يبدع حسب رؤيته ووفق ما يراه مناسباً له وللمجتمع الذي يعيش فيه.

إن كلمة ثقافة منذ نشأتها عرفت معاني ودلالات معينة اختلفت باختلاف الشعوب والمجتمعات، غير أنها لم تستقر على دلالة أكاديمية معينة من داخل البحث العلمي، ويعد "القرن الثامن عشر هو الذي بدأت فيه كلمة (ثقافة) تفرض نفسها في معناها المجازي. بهذا المعنى تم إدراجها في قاموس الأكاديمية الفرنسية (Dictionnaire de l'Académie Française) (نشرة 1718)، وهي، في أغلب الأحيان، متبوعة بمضاد يدل على موضوع الفعل. هكذا كان يقال (ثقافة الفنون) و(ثقافة الأدب) و(ثقافة العلوم) كما لو كان ضرورياً أن يحدد الشيء المعنى به تثقيفاً<sup>1</sup>. وبهذا، تحررت كلمة الثقافة من معناها الضيق المرتبط بالفلاحة والحرف وتطوير كفاءات الفلاحين إلى المعنى العلمي الأكاديمي. مع عصر الأنوار ظهرت كلمة ثقافة في التربية والأدب والعلوم وغيرها من التخصصات، وبالرغم من أنها استعملت مفردة إلا أنها عرفت تطوراً كبيراً وتشعباً في المعنى والدلالة.

1 ديبس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص 17-18.

في الحديث اليومي عن الثقافة غالبا ما يتم التركيز على مستويات التفكير والتراكم المعرفي لدى الشخص، كذلك الجوانب الإبداعية مثل الفنون والأدب والموسيقى والرسم والكتابة والرقص ... الخ، غير أنها تعني بالإضافة إلى ذلك أبعاد أخرى، وبهذا، "الثقافة تعني أسلوب الحياة الذي ينتجه أعضاء مجتمع ما أو جماعات ما داخل المجتمع. وهي تشمل على هذا الأساس أسلوب ارتداء الملابس، وتقاليد الزواج، وأنماط الحياة العائلية، والاحتفالات الدينية، ...، بالإضافة إلى وسائل الترفيه والترويح عن النفس"<sup>1</sup>. يستشف من هذا القول، أن الثقافات تتعدد بتعدد طريقة العيش وأسلوب الحياة، والأنماط والأشكال التعبيرية التي يعبر بها كل مجتمع عن نفسه. والثقافة هي مميزة لجماعة اجتماعية ككل، وليست تعبيرا عن ميولات ورغبات الأفراد، إذ أنها هي التي تحدد نوع هويتهم وانتماءهم، كما أنها تعتبر الموجه الرئيسي لعلاقاتهم وطريقة عيشتهم.

إن تعدد معاني ودلالات الثقافة راجع إلى تعدد وجهات النظر وزاوية الدراسة حسب العلوم والتخصصات، باعتبارها ظاهرة تدرس وفق قواعد ومناهج معينة، لذلك مثلا، "تعني

1 أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم: فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2005م، ص 79.

الثقافة في نظر علماء الاجتماع جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة. ويشارك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل ... وتتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة مثل: المعتقدات، والآراء، والقيم التي تشكل المضمون الجوهرية للثقافة، ومن جوانب عيانية ملموسة مثل: الأشياء، والرموز، أو التقانة التي تجسد هذا المضمون"<sup>1</sup>.

وبهذا المعنى، تعد الثقافة ذلك الكل الذي يشمل كل مناحي وجوانب حياة الإنسان والتي ساهم في إنتاجها وإبداعها وفقا لحاجاته وضرورات عيشه، كما تشمل جوانب أخرى ضمنية مرتبطة بالجانب القيمي المؤطر لكل سلوكيات الإنسان وطريقة تفكيره وتفاعله مع الآخر.

بناء على هذه المعطيات، يمكن مقارنة الثقافة بالاعتماد على مداخل مختلفة ومتنوعة: أنثروبولوجية، سوسولوجية، فكرية، ونقدية ... إلخ. ومن أمثلة ذلك، الباحث (ماثيو أرنولد) الشاعر والناقد والمدرس، الذي يرى أن "الثقافة هي دراسة الكمال والتي من شأنها أن تقود إلى كمال متناسق بتطويرها لكل

1 أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ص 82.

جوانب إنسانيتنا ثم إلى كمال عام بتطويرها لكل أجزاء المجتمع. والناس يصبحون مثقفين باتباعهم طريق الكمال"<sup>1</sup>. حسب آرنولد، الثقافة تتحدد من خلال المعرفة، معرفة كل ما يتعلق بجوانب شخصية الإنسان وخصوصيات الجماعة، معرفة أفضل ما يساهم في بناء الإنسان وكل ما يحيط به من ممارسات صحيحة لها وقع إيجابي تنويري على حياته. فكلما سعى الإنسان إلى الانفتاح على تخصصات واتجاهات عدة عن طريق القراءة والبحث المستمر، من خلال دراسة أرقى الموضوعات في الشعر والأدب مثلا، كلما كانت له القدرة على تطوير وتنمية إنسانيته نحو الكمال. غير أن الإنسان أصبح يميل إلى الكمال المادي، ولا يرى إلا ذاته، ولا يسمع إلى صوته في إغفال تام عن القيم والمبادئ التي تؤصل لواقعه وهويته بسبب الثورة التكنولوجية.

إن الثقافة تنبني على معايير وقواعد متفق عليها من قبل أعضاء الجماعة الاجتماعية، وهي التي تحدد شروط وضوابط النظام العام داخل نفس الجماعة، لذلك فإن جميع التفاعلات والعلاقات بين هذه الأفراد لا يمكن أن تخرج عن هذه الضوابط، وإلا يعتبر صاحبها خارجا عن القانون وخارقا لقواعد وأصول الثقافة الأصلية. بعض المجتمعات تشدد على قيمة المعتقدات

1 هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ص 40.

الدينية التقليدية، بينما تميل مجتمعات أخرى إلى إعطاء قيمة للتقدم والعلوم.

في الوقت الذي يركز فيه البعض على الراحة المادية وتحقيق النجاحات، يرى البعض الآخر راحته في الهدوء والبساطة. غير أنه في هذا العصر الذي يعرف تغيرات كثيرة بفعل التقنية والتكنولوجيا وانتقال الأفراد بشكل مستمر والأفكار والسلع والمعلومات بشكل مفرط وسريع، تعرف الثقافة الخاصة بكل مجتمع تهديدا كبيرا بفعل ما أفرزته العولمة وتدويل العادات والتقاليد، إذ برزت ثقافات غازية ومسيطرة بوسائل وتقنيات مستهلكة ومتداولة.

الثقافة تتغير بمرور الزمان وتغير المكان وحتى الأشخاص وحاجاتهم، فالأشكال الثقافية التعبيرية والمعتقدات التي كانت تؤمن بها جماعة اجتماعية معينة في حقبة زمنية معينة سرعان ما تتغير، وقد تطعم بأشكال ثقافية أخرى بسبب تغير الإقامة، وحسب النضج الفكري لأفراد الجماعة بفعل الدراسة، أو الهجرة إلى الخارج، والزواج الخارجي، أو انفتاح الأفراد على ثقافات أخرى، أو بفعل ربط علاقات خارجية بين الأفراد والجماعات، وغيرها من الأسباب.

الثقافة إذن، هي ذلك الجزء من البيئة الذي صنعه الإنسان، ويمكن إجمالها في كل ما هو مكتسب، بمعنى غير طبيعي (فطري). الثقافة أسلوب وطريقة العيش الحياة التي تتمكن جماعة بشرية من تأسيسها لتكون مقبولة من جميع أفراد الجماعة، وملائمة لهم كمجموع، وهي طريقة تتضمن أساليب الإدارة وآلياتها، ونمط التفكير، وآداب السلوك والمعتقدات، أو منظومة الأخلاق والقيم التي تحكم الجماعة، وكذلك اللغة، ونمط العيش بما يتضمنه من مسكن ومأكل ومشرب ومن علاقات وأنظمة سلوك تؤسس التواصل بين الفرد والفرد، وبين الفرد والجماعة ككل، وبين الفرد والطبيعة، وبينه وبين الوجود.

### المفهوم العالمي للثقافة:

في مفهومها الكوني، تتداخل الثقافة مع مفهوم الحضارة، إذ أكد عالم الأنثروبولوجيا البريطاني (إدورد بارنات تايلور) في أول تعريف عالمي للثقافة: "إن (الثقافة) أو (الحضارة) موضوعة في معناها الإثنولوجي الأكثر اتساعا، هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه

عضوا في المجتمع"<sup>1</sup>. يبرز هذا التعريف العناصر اللامادية لحياة الناس في جماعة، كالأخلاق والقانون والعرف التي تنشأ نتيجة للتفاعل الاجتماعي، وتأخذ طابعا إلزاميا، إلى جانب العنصر المادي للثقافة، علاوة على العلاقات بين الناس، وبين العناصر المكونة لهذه الثقافة.

يرى تايلور أن الثقافة تشمل جميع مناحي ومظاهر الحياة، المادية من أشياء وأحداث يمكن عدّها أو قياسها مثل اللغة والفنون ...، واللامادية المعنوية كالطقوس والعادات ... إلخ. هي ترتبط بالجوانب الاجتماعية للإنسان والتي يبدع فيها، ومن خلالها يكتسب سلوكيات وقيم معينة مؤطرة لعلاقاته بين الأفراد والجماعات، وبهذا المعنى يرى أنها نظرة شمولية للحياة، وهي بذلك تكتسب بعدا اجتماعيا. ويعد ظهور مفهوم الثقافة والحضارة من السمات الحقيقية على تطور المجتمعات، لأن الثقافة تتميز بالتنوع والاختلاف، أما الحضارة تعد شاملة وتظهر انعكاساتها على الشعوب والمجتمعات من حيث تجديد أدوارها ووظائفها وفعاليتها مقارنة مع المجتمعات الأخرى، إذ أن لكل شعب حضارة خاصة تنبني على تمظهرات ثقافته المبنية على تقاليده وطقوسه وقواعده التي يعتبرها ثوابت وأصول ثابتة.

1 ديبس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص 30.

حسب هذا الاتجاه، الثقافة تحتوي على الأفكار والاتجاهات العامة المقبولة والمتوقعة من قبل جماعة اجتماعية معينة، التي يتعلمها الفرد من خلال علاقته بالواقع الاجتماعي. وبهذا، تلعب الثقافة أدواراً رئيسية في تأهيل الفرد لكي يكون قادراً على الاندماج في الحياة الاجتماعية، إذ تشكل سيوررة تساعد الأجيال على الاستفادة من إرث الماضي والعمل على المحافظة عليه للأجيال اللاحقة.

من خلال تعريف تايلور للثقافة وربطها بالحضارة يظهر أن الفكر الذي ساد الحقبة التي ظهر فيها هذا التعريف لم يكن يفصل بين الثقافة والحضارة، غير أن المفهومين معاً، مع تطور المجتمع وتعدد حاجاته ودوافعه وخاصة فيما يتعلق بالانحدار الاجتماعي، أصبح التمييز بينهما واضحاً. فالثقافة تتميز بأنها تراكمية ومكتسبة وتنتقل من جيل إلى آخر، وبالتالي هي نتاج الفكر المجتمعي بما يشتمل عليه من قيم وأعراف وقوانين وفنون ومعتقدات، والحضارة انعكاس لهذه الثقافة أو تلك، وهي تميز أناساً مارسوا وعاشوا التحضر بثقافة معينة.

### المنظور البنيوي للثقافة:

يعد كلود ليفي ستراوس أهم الأعلام البارزين والمؤسسين للأنثروبولوجيا الثقافية، وباعتباره أحد رواد المدرسة البنيوية،

عرف بالمنهج الأنثروبولوجي البنيوي في دراسته للظواهر خاصة السلوك الثقافي الذي يتخذ شكل نظم وبنيات اجتماعية كالعائلة وبنية القرابة والتنظيم السياسي والعادات والتقاليد في المجتمعات البدائية، وذلك من أجل تحديد علاقات التأثير والتأثر بينها، إذ يرى في هذا الصدد: "إن تحديد ما هو فطري وما هو مكتسب في سلوك الإنسان قد يكون مجالاً مثيراً للبحث إذا ما كان هذا التحديد ممكناً"<sup>1</sup>. يستشف من هذا القول، أن بنيوية ستراوس تعمل على إبراز الفوارق البنيوية بين ما يولد مع الإنسان وما يكتسبه باعتباره عضواً في جماعة في علاقته مع البيئة التي يعيش فيها، مع تبيان كيف تقوم الجماعة بوظيفتها بوصفها نظاماً اجتماعياً، ومن هذا المنطلق التركيز على الفروق القائمة بين الثقافات البشرية أكثر من التشابه.

الثقافة لها علاقة كبيرة مع الدراسات الأنثروبولوجية، لأن لها السبق في دراستها وتحليل أصولها بالرجوع إلى الموضوعات البدائية التقليدية، والعلاقات التي تربط بين الناس في إطار البيئة المحيطة بهم، و"على الرغم من أن الأنثروبولوجيا الطبيعية تلجأ إلى معارف ومناهج متفرعة من العلوم الطبيعية فإنها تؤول إلى حد كبير إلى دراسة التحولات التشريحية

1 اموندليتس، كلود ليفي ستراوس، البنيوية في مشروعها الأنثروبولوجي، ترجمة: نائير ذيب، دار الفرقد، دمشق، سوريا، ط 2، 2010م، ص 217.

والفيزيولوجية الناجمة بما يتعلق بنوع حي معين عن ظهور الحياة الاجتماعية واللسان ومنظومة القيم أو بكلام أصح ظهور الثقافة"<sup>1</sup>.

حسب هذا الرأي، يتموقع الإنسان في الوسط، بين الغريزة والعقل، بين البداوة والحضارة، بين التوحش والتحضر، بين الطبيعة والثقافة. الإنسان، من هذا المنطلق، كائن ثقافي وطبيعي في نفس الوقت، والثقافة لا تخص مجتمع دون آخر، كما أنه لا وجود لمجتمع من دون ثقافة هي التي تميزه وتحدد خصوصيته، وهي ميزة لجماعة اجتماعية معينة، تتشكل من أنماط سلوكية معينة وتتضمن ممارسات مشتركة موروثية ومتطورة، تنقسم إلى جانب مادي وآخر معنوي.

إذا كانت الثقافة هي تعبير عن طريقة عيش الإنسان داخل جماعة اجتماعية بما تحمله من طباع ومميزات خاصة، فإنها متعددة الأقطاب والأشكال والمصادر، حيث تتداخل فيها مصادر عدة ترتبط بالإنسان نفسه الذي يصنع هذه الثقافة بطريقة مقصودة أو غير مقصودة، "أما الاعتقاد بأن الإنسانية قد حلت في نمط واحد من الأنماط الجغرافية أو التاريخية

1 كلود ليفي ستراوس، الأنثروبولوجيا البنوية، ترجمة: مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977م، ص 406.

فيستحيل أن يسود في تلك المجتمعات أو في مجتمعنا دون أن تكون السذاجة والأناية قد طبعتهما، ذلك أن حقيقة الإنسان لا تكمن إلا في اختلاف اجتماعاته وخصائصه المشتركة في أن معا"1.

وهذا المعنى، لا يجب النظر للإنسان من جانب واحد، فلا يمكن الفصل بين العوامل البيولوجية والعوامل الاجتماعية في تكوين المحيط الذي يعيش فيه هذا الإنسان، إذ نجد تداخلا بين العناصر الطبيعية والمعطيات الثقافية. وبالتالي، لا وجود لطبيعة خالصة، وليس هناك ثقافة غير متداخلة مع الطبيعة، مع العلم أن لكل ثقافة حركية وخصوصية خاصة وبنية مادية ومعنوية معينة. يعتمد كلود ليفي ستراوس في دراسته للثقافة على الأساطير والطقوس والعادات والتقاليد وأبنية القرابة بما فيها الزواج الداخلي والزواج الخارجي والتفضيلي والمتعدد ...، وتأثيرات هذا كله على العلاقات الاجتماعية ومدى إسهامه في تماسك وتفتت هذه العلاقات.

ومن وجهة نظر أخرى، يرى كلود ليفي ستراوس، حول الثقافة ولغتها التعبيرية المتعددة وعلاقتها بالأنساق الرمزية، أنه

1 كلود ليفي ستراوس، الفكر البري، ترجمة: نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1987م، ص 134.

"يمكن اعتبار كل ثقافة مجموع أنساق رمزية تنصدرها اللغة وقواعد التزاوج والعلاقات الاقتصادية والفن والعلم والدين. كل هذه الأنساق تهدف إلى التعبير عن بعض أوجه الحقيقة الطبيعية والحقيقة الاجتماعية، وأكثر من ذلك إلى التعبير عن العلاقات التي ترتبط بها كل من هاتين الحقيقتين بالثانية، وتلك التي ترتبط بها الأنساق الرمزية ذاتها بعضها ببعض"<sup>1</sup>. نستنتج من هذا القول، أن الثقافة عبارة عن تعبيرات لأشكال وأنواع مختلفة نابعة من الممارسة الإنسانية بالخصوص للكشف عما هو طبيعي في علاقته بما هو اجتماعي، وهي أشكال رمزية منظمة مادية ومعنوية، من أبرزها وأهمها اللغة باعتبارها وسيلة للتواصل بين الأفراد والجماعات، ويمكن أن تندرج ضمن الدين والفن والعلم كل من العادات والطقوس والتقاليد والعلاقات التجارية من بيع وشراء.

أما عن مركزية اللغة ودورها الأساسي في قراءة وفهم الثقافة، يؤكد ستراوس أنه "بدون رد المجتمع أو الثقافة إلى اللغة، يمكن البدء بهذه (الثورة الكوبرنيقية) (...) التي ستمكن في تفسير المجتمع، في جملته، تبعا لنظرية التواصل. والمحاولة ممكنة منذ اليوم، في ثلاث مستويات: ذلك لأن قواعد الزواج

1 ديبس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص 78.

والقرباة تصلح لتأمين انتقال النساء بين الجماعات، مثلما تصلح القواعد الاقتصادية لتأمين انتقال الأموال والخدمات، وقواعد اللغة لانتقال معاني الآثار ومغازيها"<sup>1</sup>. هذا يعني أن هناك مقايضة بين هذه الأشكال التي تقوم بينها علاقات، فعلاقات الزواج حسب ستراوس، تكون مرفوقة بإعانات اقتصادية وأن اللغة حاضرة في جميع المستويات، مما يبرز تشابهات أكيدة بينها (أي اللغة) والثقافة.

بالنسبة لستراوس، تعد اللغة مفتاح الثقافة، ومن دون لغة لا يمكن الحديث عن الثقافة، لأنها الوسيلة التي تؤسس للعملية التواصلية بين عامة الناس المنتمين للجماعة، إذ يقول في هذا الصدد: "ذلك أن مسألة العلاقة بين اللغة والثقافة هي من أعقد المسائل. أولاً، يمكن بحث اللغة كنتيجة من نتائج الثقافة، اللغة، المستعملة في مجتمع ما تعبر عن ثقافة السكان العامة (...). ولكن اللغة، بمعنى آخر، قسم من الثقافة، إذ أنها تؤلف عنصراً من عناصرها"<sup>2</sup>.

الألفاظ والرموز والقواعد اللغوية تعبر عن الثقافة المشتركة بين الناس، لأنهم هم من يحاولون صياغة

1 كلود ليفي ستراوس، الأنثروبولوجيا البنوية، ص 107.

2 المرجع نفسه، ص 90.

المصطلحات والمفاهيم لتحقيق التواصل بينهم، هذه الصياغة تكون نابعة من تراثهم ومما هو مشترك بينهم، وبالتالي، تعد اللغة أحد أجزاء الثقافة. إذ يضيف في نفس السياق: "يضاف إلى ذلك إمكان معالجة اللغة كشرط للثقافة، وعلى نحو مزدوج: أولاً، من ناحية التزامن، إذ يكتسب الفرد ثقافة جماعته بواسطة اللغة، فالطفل يعلم بالكلام ويربى به، ويؤنب بالكلام ويلطف به"<sup>1</sup>. من هذا المنظور، تصبح اللغة مطلباً أساسياً لبناء الثقافة في مجتمع معين، باعتبارها المشترك بين أفراد الجماعة، وباعتبارها كذلك سياقاً لبلورة القيم والعادات والتقاليد وتعزيزها بينهم، ولأنها وسيلة التواصل أو الخيط الناظم للعلاقات المتبادلة داخل الجماعة.

ومن وجهة نظر أخرى، يؤكد ستراوس على العلاقة التلازمية بين اللغة والثقافة، إذ يرى: "من زاوية أكثر تجريداً، تبدو اللغة كشرط من شروط الثقافة بالقدر الذي تمتلك به هذه الأخيرة بنية شبيهة ببنيتها. تقومان كلتاهما على مجموعة من التقابلات والعلاقات المتبادلة، أو العلاقات المنطقية"<sup>2</sup>، والتركيز هنا على التركيب التسلسلي الممنهج في بناء اللغة والثقافة، فوجود

1 المرجع نفسه، ص 90.

2 كلود ليفي ستراوس، الأنثروبولوجيا البنوية، ص 90.

الثقافة مرتبط بوجود اللغة، حيث التماثل في البناء، وهو الأمر الذي أكدته سترابوس في دراسته لأبنية القرابة على أنها تسير وفق مسار اللغة في التشكيل.

مما سبق، يمكن القول بأن هناك علاقات متبادلة بين اللغة والثقافة، بل علاقة جدلية مبنية على التأثير والتأثر. من جهة يظهر أن اللغة جزء وشرط أساسي لوجود الثقافة، لأن قيم ومبادئ الثقافة يتم تداولها عبر اللغة، ومن جهة أخرى تعد اللغة نتيجة للثقافة، لأن قواعدها ورموزها وألفاظها متعارف عليها بين الناس ونابعة من ممارساتهم ومعاملاتهم اليومية. اللغة تنتمي للثقافة التي ينتجها المجتمع، فالبشر يملكون القدرة على توظيف اللفظ، الذي هو رموز تنطق أو أصوات، معاني تحمل دلالات عديدة.

### المنظور الوظيفي للثقافة:

يعتبر مالمينوفسكي أن الأفراد يمكنهم أن يؤسسوا ثقافة خاصة تبني على إرضاء وإشباع حاجاتهم، البيولوجية، والنفسية، والاجتماعية، فهو يرى أن "كل الثقافات، بصرف النظر عن تنوعها في الشكل، تقوم بوظيفة إشباع حاجات عضوية ونفسية عالمية للأفراد. الثقافة، إذن هي أداة يُشبع

الأفراد عن طريقها تلك البواعث، مثل الجوع والجنس"<sup>1</sup>. ذلك هو ما عناه عندما أعلن أن الثقافة "يجب أن تفهم على أنها وسيلة لغاية، أي بالمعنى الآلي أو الوظيفي"<sup>2</sup>. من هذا المنطلق، ربط الثقافة بجوانبها المختلفة المادية والروحية والاجتماعية بالاحتياجات الإنسانية. وفي هذا الإطار، "أكد على سبع حاجات أساسية يجب إشباعها لاستمرار الكائن البشري: تأمين الطاقة الحيوية، التناسل، راحات الجسد، الأمان، الحركة، النمو، والصحة"<sup>3</sup>.

الثقافة لدى مالينوفسكي كيان كلي ووظيفي متكامل، بحيث لا يمكن فهم دور ووظيفة أي جزء فيه، إلا من خلال معرفة علاقته بالأجزاء الأخرى، إذ أنه يرى كل نمط ثقافي، وكل معتقد ديني، أو موقف، يمثل جزءا من ثقافة المجتمع، يؤدي وظيفة في الثقافة، من خلال العلاقات الترابطية والتفاعلية بين

1 مالينوفسكي وراذ كليف براون، ضمن: نظرية الثقافة، ترجمة د. علي سيد الصاوي، مراجعة أ. د. الفاروق زكي يونس، سلسلة عالم المعرفة، عدد 223، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، يوليو 1997م، ص 267.

2 المرجع نفسه، ص 267.

3 المرجع نفسه، ص 284.

جميع أجزاء الثقافة، وأن هذه الثقافة ليس لها معنى ولا دلالة إلى في إطار الكل المتكامل بين جميع الأجزاء المكونة لها.

أما إميل دوركهايم ومارسل موس عملا من خلال أبحاثهما ودراساتهما حول الطبيعة التركيبية للمجتمعات البدائية، من حيث الدين والأخلاق والطقوس والعادات وغيرها من المكونات، على وضع تصنيفات بدائية معينة لهذه المجتمعات، إذ أنه "في التصنيف البدائي (...)، حاول إميل دوركهايم ومارسل موس أن يجيبا عن الأسئلة الأساسية حول كيفية نشوء الثقافة الإنسانية. وهما اعتبرا أن الثقافة تصبح ممكنة فقط عندما يتمكن الإنسان من التمييز بين الأشياء أو تصنيفها. وعند الولادة لا يستطيع الإنسان تصنيف الأشياء بل هو يرى فقط تدفق مستمر للصور، وهذا يجعل من الصعب عليه فصل الأشياء عن بعضها. ولكي يطور الإنسان شكلا من الثقافة لابد له أن يوجد نظام لتصنيف الأشياء. وبدون ذلك سوف لن يعثر على معنى للعالم المحيط به"<sup>1</sup>. نستنتج من هذا الكلام، أن إدراك مكونات وعناصر وخصوصيات البيئة المحيطة بالإنسان ينتج عن طريق القدرة على التصنيف والفصل بين كل العناصر المكونة لهذه

1 هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ص 17.

البيئة، وإدراك العلاقات والروابط بينها، وهذا تكون له القدرة على التمييز وتطوير الثقافة.

من هذا المنطلق، يتضح أهمية النسق الاجتماعي عند الوظيفيين في تكوين الثقافة، لأن الفرد يطور ثقافته من خلال وظيفته داخل الجماعة التي توفر له الأرضية الأساسية والخصبة الموروثة من قيم وأخلاق ومبادئ وقوانين خاصة بهذه الجماعة، يندمج فيها هذا الفرد حسب مراحل العمرية ويكتسب خلالها قواعد وأصول وضوابط مشتركة، لأن هذه الثقافة الناتجة بفعل قدرته على التمييز وتصنيف الأشياء هي من تمنحه القدرة على إدراك وتمثل الواقع الذي يعيش فيه.

يؤكد إميل دوركهايم على أن "الثقافة هي ذات أصل اجتماعي. ففي كتابه (الأشكال الأولى للحياة الدينية) نراه يوسع النقاش حول التصنيف البدائي ليشمل الأديان. فهو يرى أن الدين يرتكز على التقسيم الرئيسي للعالم إلى مقدس ودنوي. وهو يستعمل مرة أخرى نموذج الجماعات الأسترالية البدائية ثم يتقدم في النقاش ليؤكد أن النظام الطوطمي يرتبط بقدسية المجتمع"<sup>1</sup>. بالنسبة له، تحتل الثقافة، بما تشتمل عليه من

1 المرجع نفسه، ص 19.

عقائد وشعائر وأخلاق مشتركة، مكانة متميزة في تصنيف المجتمعات البسيطة، الأمر الذي استنتجه واستخلصه في دراسته للجماعات الأسترالية البدائية، وبالتالي هو المحدد الرئيسي للوعي الجماعي داخل المجتمع. هذا الوعي يتميز بتأثيره القوي على الناس وسلطته التي تدمج الفرد في الجماعة بشكل ضمني.

إن الوعي الجمعي يشكل بالنسبة لدوركهاميم عامل أساسي في تطور المجتمع لأنه هو الذي يوجه اختيارات الأفراد من خلال سلطته التعسفية التي تقيد السلوك، وهو ثقافة مشتركة بين جميع أفراد الجماعة الاجتماعية، متوارثة من جيل إلى جيل، فهو لا يعبر عن رغبات واتجاهات فرد معين بعينه بل يعكس توجه وانتماء الجماعة.

### الثقافة والهوية:

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عندما تطرح قضية الهوية على أي شخص هو الإجابة عن سؤال بسيط هو من أنت؟ إذ يحاول كل واحد الإجابة عنه بطريقته الخاصة، وغالبا ما تتضمن الإجابة الاسم الشخصي والعائلي واللغة والدين والمنطقة التي ينتمي إليها...، وقد يطلب منه تحديد هوية شخص آخر وتكون الإجابة بنفس الطريقة، وهذا ما يعكس تصور كل واحد عن

نفسه وعن الآخرين، لذلك، تعد الهوية الشكل والطريقة التي يعرف بها الإنسان ذاته والآخرين. "يتداخل مفهوم الهوية مع مفهوم الماهية، فالهوية لغويا أن يكون الشيء هو هو وليس غيره، وهو قائم على التطابق أو الاتساق في المنطق. والماهية أن يكون الشيء ما هو بزيادة حرف الصلة (ما) على الضمير المنفصل (هو). والمعنى واحد. قد يجعل البعض (الماهية) أكثر عمقا من (الهوية). وفي اللغات الأجنبية لكل لفظ منفصل ماهية Essence من اللاتينية Esse وهو فعل الكينونة. ولفظ (هوية Identité) من الضمير Id أي هو"<sup>1</sup>.

أما بخصوص مميزات الهوية، ترى إريكا فيشر أنه "إذا أمعنا النظر في (الهوية)، فإننا نجدها تفتقد إلى مركز ثابت على الرغم من إصرارها المستمر على التشبث بالحضور Presence والأصل Origin، بالإضافة إلى تموقعها في فضاء تخومي بيني يتراوح عموما بين الأنا والآخر. وما الهوية إلا نموذج مثالي للأشكال الهاربة المهاجرة، وسريعة التحول، وغير المستقرة على حال"<sup>2</sup>. إذن،

1 حسن حنفي حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص10.

2 إريكا فيشر ليشته، من مسرح المثاقفة إلى تناسج ثقافات الفرجة، ترجمة وتقديم: خالد أمين، منشورات المركز الدولي لدراسات الفرجة، سلسلة 22، ط 1، طنجة-المغرب، 2016م، ص 13.

هي تأبى الاستقرار والجمود، وتخضع للتأثير والتأثر بين الأنا والأخر المخالف، فهي لا تعبر عن رؤية أو وجهة نظر شخص بعينه، أو تحدد في جانب ثقافي محدد دون آخر ضمن نسق شعب معين، وإنما هي منظومة متكاملة شاملة تتداخل فيها جوانب عدة وتعبر عن نسق ثقافي شامل لشعب معين. غير أنها تتأثر بالمستجدات والدواخل الجديدة على الثقافة الأصلية، مما يجعل منها فضاء مشترك أحيانا.

ومن وجهة نظر أخرى، يرى إدورد سعيد حول الهوية، أنها: "مبدأ سكوني أساسا يشكل باب الفكر الثقافي خلال العهد الإمبريالي، إن الفكرة الوحيدة التي لم يكن يمسه التغيير إطلاقا عبر التبادلات التي بدأت بانتظام قبل نصف ألف من الزمن بين الأوروبيين وآخرهم هي أن ثمة شيئا (جوهراانيا) هو (نحن) وشيئا هو (هم) وكل منهما مستقر تماما (...). وهو انقسام يعود تاريخيا كما ناقشته في (الاستشراق) إلى الفكر اليوناني عند البرابرة، لكن أيا كان من ابتكر هذا النوع من فكر الهوية فإن مع حلول القرن التاسع عشر كان قد أصبح العلامة المانزة للثقافات الإمبريالية (...). نحن ما نزال ورثة ذلك الأسلوب الذي يتحدد المرء تبعاً له

بالأمة، التي تستقي هي بدورها، سلطتها من تراث يفترض أنه مستمر دونما انقطاع"<sup>1</sup>.

يربط إدورد سعيد الهوية بالفكر الاستعماري، الذي ارتبط بالسيطرة الأوروبية على الشعوب المستضعفة، وكانت الهوية هي بوابة الفكر التي ولج منها المستعمر من خلال الدراسات والأبحاث وترجمة الروايات والكتب وتأويل محتوياتها لصالح مصلحته وأهدافه الغاشمة، أي بالمركزية الأوروبية وجهودها من أجل تعزيز ثقافتها على حساب الثقافات الأخرى. ويرجع ابتكار الهوية، في نظره، إلى الفكر البربري في العهد اليوناني، وبالرغم مما كانت تعرف به الهوية أصبحت منذ القرن التاسع عشر، تشكل مأزقا بالنسبة للفكر الغربي نظرا لما عرفه العالم من تغيرات ومستجدات نابعة من نضج الفكر الإنساني.

وهذا، انتقد إدوارد سعيد الأساليب التقليدية التي ترى أن الاعتماد فقط على التراث الأصلي يمكنه أن يساهم في التطوير والتحديث، وبذلك يثور على الهوية المتصلبة والمنعزلة والمنغلقة والمتمركزة حول ذاتها، والتي لا تنتج إلا الصدام والفرقة، ويدعو بالمقابل إلى هوية الانفتاح على المتعدد

1 إدورد سعيد، الثقافة والإمبريالية، دار الأدب للنشر والتوزيع، ط 4، بيروت-لبنان، 2014م، ص 23.

الإنساني. فالعالم اليوم غزير بالهويات، تتفاعل انسجاما، وتتنافر أحيانا أخرى، وتبحث عن وجود إنساني مشترك بعيدا عن التحكم والسيطرة والتبعية، في تواصل دائم بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، لأن النزعة الإنسانية بطبيعتها تفرض تحطيم التمرکز الثقافي، سواء الغربي أو الشرقي أو الإفريقي أو الإسلامي.

وبهذا المعنى، أصبحت الهوية تترجم في مكان ثالث بين العالم والفرد، وبين مختلف عمليات فهم الفرد للذات، إنها عملية لا تنتهي أبدا، وتدفع الأفراد إلى التساؤل والتفكير باستمرار في الطرق المختلفة لوجودها في مجتمع ما. وتجتمع وتتكامل مجموعة من العوامل في تشكيل الهوية وإعادة تشكيلها، منها اللغة والعادات والتقاليد والطقوس والدين ونوع التربية والمؤسسات الإعلامية وتراكم الخبرات والتجارب الشخصية وغيرها من المكونات التي تشكل ثقافة الفرد وطريقة عيشه في الحياة. فنوع الثقافة السائدة له دور كبير في تحديد نوع الهوية.

تعتبر الثقافة والهوية امرين مترابطين، لا يمكن الفصل بينهما، إذ أن لكل شعب ثقافة مميزة له تكون بمثابة عنوان لهويته. أما "الهويات يمكن أن تتشكل عبر الثقافات الرئيسية

والثقافات الفنية التي ينتمي لها الأفراد أو التي يشاركون فيها"<sup>1</sup>، فلا يمكن تحديد الهوية الثقافية لشعب من الشعوب في الجانب الديني أو السياسي أو الفني أو التاريخي أو الأدبي أو العلمي مثلا، بل هي مجموع هذا كله بشكل تكاملي ترابطي في جسم ثقافي واحد ليشكل معالم الثقافة العامة الخاصة بالشعب بمختلف روافده وتراكماته التاريخية.

الثقافة تعتبر ركن أساسي في تشكيل الهوية، لأن الفرد أو الجماعة من دون ثقافة يعتبر فاقدا للهوية، وتشكيل الهوية يقتضي الانتماء للجماعة والتقيّد بقيودها وتمثل قيمها وعاداتها وضوابطها حتى يصبح فاعلا وممارسا لها، لذلك تعتبر الهوية الثقافية عبارة عن ثقافة ما، أو هوية لمجموعة أو شخص ما، نظرا لتأثر هذا الشخص بهوية المجموعة الثقافية، أو ثقافته التي ينتمي إليها، إذ يعتبر ستيفن فروش (Stephen Frosh) أن "النظرية الحديثة لعلم النفس وعلم الاجتماع تؤكد أن هوية الفرد هي في الحقيقة متعددة وربما سائلة، حيث إنها تتكون عبر التجربة وترسخ برموز لغوية. والأفراد حين يطورون هوياتهم إنما ينجذبون إلى المعطيات الثقافية الموجودة في الشبكة

1 هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ص 16.

الاجتماعية المباشرة لهم وتلك الموجودة في المجتمع ككل"<sup>1</sup>. نستنتج من قول فروش أن الهوية تتشكل من الثقافة، ويؤثر في تشكيلها كل مكونات المحيط الثقافي والاجتماعي، مثل العادات والتقاليد ونمط العيش واللغة والتعبيرات الفنية والعقائد والقوانين وغيرها.

علاقة الهوية بالثقافة يمكن تمثيلها في علاقة الذات بالإنتاج الثقافي في مجتمع ما، ويفترض ذلك وجود ذات مفكرة وفاعلة ومبدعة تعمل على إنتاج أنماط ثقافية معينة بمواصفات وشروط محددة هو ما يحدد هويتها، وممارسة الإنسان الإبداعية في طريقة عيشه، وأسلوب حياته، وفي توظيف تراثه بطريقة متجددة منتجة، وكل أشكاله التعبيرية المشتركة، هو ما يساعد على بناء الهوية، وهي لا تعرف الاستقرار والثبات فهي متجددة بتجدد أشكال الثقافة، وتخضع لدينامية والتطور أو الموت، وذلك مرتبط بالممارسة الإبداعية للفرد داخل الجماعة.

1 هارلمبس وهولبورن، سوسولوجيا الثقافة والهوية، ص 15.

وهكذا تصبح عناصر وأبعاد الثقافة ثلاثية، فهي تتلقى وترد وتنتج أو بعبارة أدق: تعي وتتفاعل وتفاعل ومن هنا نستنتج أن الثقافة تنعكس في وضعية من الوضعيتين التاليتين:

### أ- الثقافة العضوية:

وفي هذه الوضعية تنطلق من مفهوم الثقافة كما يستعمل في الأنثروبولوجيا: الثقافة هي مجموع الرموز التي تعكس الحياة الجماعية انعكاسا مباشرا، لذا يكون كل عضو من أعضاء المجتمع حامل ثقافة رغم وجود أفراد متخصصين كالشاعر أو القصاص أو الطبيب أو الساحر، تسمى الثقافة في هذه الحالة عضوية لأن بنيتها مطابقة لبنية المجتمع، تتضمن بالطبع تميزات وتناقضات وهي تعبر كلها على تعارضات واختلافات اجتماعية أو مهنية، تتطور الثقافة لكن تطورا موازيا لتطور المجتمع، وهذا في حالة المجتمعات المنعزلة المستقلة.

لنتصور الآن حالة مجتمع خاضع لآخر، أو حالة ثقافة متفتحة على ثقافة أجنبية، لنتصور حالة فارس بعد الفتح الإسلامي، أو حالة أوربا الغربية في عهد النهضة بعد اكتشاف الحضارة اليونانية القديمة، أو حالة روسيا بعد إصلاحات بطرس الأول، فالوضعية التي أنشأها القيصر المصلح في روسيا

كانت سبب إبداع كلمة جديدة تعبر عن وضعية جديدة للثقافة وهي (أنثيليجنسيا).

### ب- وضعية أنثيليجنسيا:

تتميز الوضعية الجديدة بكون الثقافة المستوردة غير مرتبطة عضويا بالحياة الاجتماعية، منطقتها مختلف وتعاييرها مختلفة، ذوقها مختلف عما تعود عليه المجتمع الأصلي، وعمما يسير عليه أغلبية الناس. عوض أن تعكس الثقافة تحولات المجتمع العفوية وأن تتأثر مباشرة بتناقضاته، فهي التي تحاول أن تغير السلوك والذوق والتعبير ليعود المجتمع مطابقا لمنطقها، هذا هو مغزى السياسة الإصلاحية، عوض أن تبقى التناقضات متوازية في الثقافة وفي المجتمع، يعود التناقض الأساس هو ما يفصل المجتمع عن الثقافة، أي حاملي تلك الثقافة عن المواطنين العاديين، وتعود الثقافة قبل أي شيء آخر علامة تمييزية، ممثلة في المزدوج الذي يعبر عن وحدانية المثقف وسطحية الثقافة المستعارة، والبحث عن الملهم الذي بقي مرتبطا بالثقافة الشعبية الأصلية<sup>1</sup>.

1 عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 2009، ص 173.

## نقد الثقافة:

من الطبيعي أن انسداد أفق عمل أية أمة أو مجتمع يحمل على نقد الفكر السائد والثقافة التي توجه المجتمع وتضبط حركته وأعماله. فإذا أصيبت المجتمعات بأزمة وخلل، فمباشرة الأنظار تتوجه إلى الأفكار والثقافات السائدة في هذا المجتمع، ويوجه لها النقد والتقويم، بغية تطوير هذه الأفكار والثقافات السائدة، أو خلق صناعة قيم ثقافية جديدة تساعد المجتمع في الخروج من أزمته ومحنته، وكلما كانت أزمات المجتمع خانقة وخلل مساره عميقا كان النقد الذي يوجه إلى الثقافة حادا وشديدا.

فالمأزق الذي يعاينه الاجتماع العربي ليس منفصلا، بشكل أو بآخر، عن مأزق الثقافة العربية وأزماتها الذاتية والموضوعية، وإنما كل طرف يغذي أزمة الآخر ويضيف لها أبعادا جديدة.

واستدامة أزمة الاجتماع تعني استفحال أزمة الثقافة، وخلل الثقافة ومأزقها الذاتية والموضوعية يعني أفاق المعالجة التي توفرها هذه الثقافة لأزمات الاجتماع العربي ليست ذات جدوى، وتساهم في تعميق القيود المكبلة لحركة المجتمع وانطلاقة الأمة.

وهكذا فإن الوعي بأزمة الاجتماع يؤدي إلى نقد الثقافة والأفكار السائدة في ذلك الاجتماع. كما أن نقد الثقافة يؤدي في المحصلة النهائية إلى إعادة اكتشاف الذات الاجتماعية وتحريرها من جملة القيود التي تحول دون تقدمها وتطورها، وتدفعها إلى الانفتاح على عوالم وأفاق جديدة.

من هذا المنطلق ينبغي أن نفهم الأعمال النقدية التي يقوم بها المفكرون والباحثون العرب، هذه الأعمال الموجهة إلى نقد وفحص الثقافة السائدة وآليات التفكير المستخدمة.

من هنا ينبغي أن نحذر جميعا من تلك القيم التسويغية والثقافة التبريرية التي ترى أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، والتي تميت كل محاولات إيقاظ العقل من سباته، ولا توظف الثقافة سعيا إلى فعل التجديد والتطوير بل إلى التبرير والتسويغ والحذر الذي نراه ضروريا تجاه ثقافة كهذه ليس مسألة ترفيه، وإنما هو من صميم الأعمال الجوهرية لأنه يمنع زيف الوعي والثقافة، ويقف موقفا واعيا ونقديا من السائد من أجل تطويره وتقويمه وبث الحياة والحيوية في أرجائه.

إن الأعمال الفكرية والثقافية النقدية التي يقوم بها بعض المفكرين العرب لا تخرج عن هذا النطاق، إذ توقظ العقل من سباته وتمنع استرساله المميت، وتستفز قوى العقل للتفكير في

المسارات والخيارات، وتجعل السائد الثقافي ساحة مفتوحة للمراجعة والنقد والتقويم والإضافة<sup>1</sup>.

### مفهوم المثقف:

إن مسألة تحديد تعريف (المثقف) وتبيان مكانته ودوره في المجتمع وعلاقته بالسلطة السياسية، مسألة حديثة نسبيا من حيث الطرح، ومن هنا لا يمكن البث فيها بسهولة، ذلك أننا نجد أمانا أطروحات متناقضة ومدافعة فيما يتعلق بتحديد هوية المثقف وخصائصه.

إن المثقف حسب (جرامشي) هو شخص يؤذي مجموعة محدودة من الوظائف في المجتمع، ويمارس أي مهنة تتصل بإنتاج المعرفة أو نشرها.

وهكذا فالعبرة آخر الأمر بصورة المثقف أو المفكر باعتباره شخصا يمثل بوضوح موقفا من لون ما، وهو شخص يقدم صورا تمثيلية مفصلة إلى جمهوره على الرغم من شتى ألوان الحواجز والعراقيل، وما أقول به هو أن المثقفين أو المفكرين أفراد لهم رسالة، وهي رسالة فن تمثيل شيء ما وترجع أهمية هذه

1 محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة (المثقف العربي وتحديات العولمة)، ص 27.

الرسالة إلى إمكان الاعتراف بها علنا، وإلى أنها تتضمن الالتزام والمخاطرة في الوقت نفسه، وكذلك الجسارة والتعرض للضرر<sup>1</sup>.

ونقترح في هذا المجال الاستناد إلى نص (لادغار موران) في كتابه (الخروج من القرن العشرين) لنستعين به في مقارنة تحديد معنى المثقف: "إن تحديد كلمة مثقف على غاية من الصعوبة، على الرغم من أن الكلمة واضحة أو أنها تغرينا بوضوحها الخادع، إن المثقف لا يمكن تعريفه بممارسة الفكر وإعمال العقل وتشغيله. إذ أن كل الأعمال تتوجب أو تستلزم حضور الفكر وتشغيل العقل، كل الأعمال مهما كانت بساطتها، مع ذلك بإمكاننا أن نعرف المثقف بطريقته الخاصة في الإنتاج، وبذلك يمكننا القول أن المثقف هو الذي يجعل من الأفكار موضوع عمل، أو مادة للتحويل ولكن ليست أية أفكار وإنما الأفكار ذات البعد الإنساني الاجتماعي والأخلاقي فعندما ينزل الفلاسفة من أبراجهم العاجية وعندما يتجاوز رجال التقنية مجالات اختصاصاتهم، مدافعين ممتلكين مجموعة من الأفكار التي تتسم بطاقة على التأثير في نظام القيم الاجتماعية، المدنية والسياسية، عندها فقط يمكن نعتهم بالمثقفين، وأن صفة

1 ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، رؤية للتوزيع والنشر، ط1، 2006م، ص 45.

المثقف ليست مرتبطة قسرا وضرورة بالمهنة، وإنما هي راجعة بالأساس إلى تخطي المهنة وتجاوزها وتجاوز إطارها..."<sup>1</sup>.

والمثقف إذن هو ذلك الإنسان الذي يتمثل قيم الثقافة العليا، ويسعى، عبر نشاطه النظري والعملي إلى إنجاز تطلعات الثقافة في الواقع الخارجي، ويعرف المفكر العربي (هشام جعيط) المثقف بأنه هو "الذي يبدع ويخلق ويمثل دورا في ربط الثقافة بالواقع الفكري أو السياسي"<sup>2</sup>.

وبالتالي فالمثقف هو الذي يمارس نشاطا نظريا أو فكريا أو علميا أو جميع هذه المفردات مجتمعة.

### نقد المثقف:

ثمة في الواقع العربي الراهن، وفي الحقل الثقافي الفكري على وجه الخصوص، ما يملئ الحاجة والضرورة إلى تناول أداء النخبة المثقفة العربية ودورها في تطوير الواقع العربي، وإخراجها من القيود الداخلية والخارجية التي تكبل انطلاقها وتمنع رقيهما في مختلف الصعد والمستويات. فما زالت الساحة

1 سليم دولة، الجراحات والمدارات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1993م، ص94.

2 محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة، ص20.

الثقافية العربية تعيش الكثير من الحروب والمنازعات التي تدفع كل طرف إلى الاحتماء بقوة ما، وتوظيفها في الصراع الدائر في الحقل الثقافي.

وفي أجواء هذا الصراع والمنافسة السيئة تنزلق الخطابات الثقافية إلى مهوى استخدام كل ألوان التضليل والتمويه والارتهان الأعمى لكل وسيلة بالإمكان استخدامها وتوظيفها في عملية الصراع. فتخرج الفروقات والتمييزات الثقافية من واقع الاختلاف والمعرفي الذي يثري الساحة ويقدم لها خيارات ثقافية عديدة، إلى واقع الحرب الضروس بكل تداعياتها وآلياتها ووسائلها<sup>1</sup>. فتضمحل الموضوعية والحقيقة لصالح الانحيازات الفئوية الضيقة، وتتسع الهوة التي تفصل المثقف عن القيم الثقافية الكبرى التي يحملها في عقله، وينظر لها في كتاباته ومقالاته، لكنه يخالفها في نشاطه المجتمعي. وتكفي إيضاحاً رؤية واحدة إلى الوعي العربي المنشق على نفسه، بين مدرسة ثقافية لا ترى سبيلاً للنهوض والتقدم إلا الذاتية الثقافية العربية والإسلامية، وبين مدرسة ثقافية ترى أن طريق التقدم هو

---

1 المرجع نفسه، ص 29.

الاندماج في ثقافة الأخر لنكتشف مدى ابتعاد الحياة الثقافية العربية عن مقتضيات العلمية والموضوعية.

ولا شك أن الوعي، على حد تعبير (عبد الإله بلقزيز)، يكون ضعيفا وقاصرا ولا تاريخيا في الحالتين معا، فالاندماج في ثقافة الأخر ليس صكا حقيقيا للمعاصرة والتقدم أوروبا لا توزع "التقدم على غير أبنائها الذين صنعت وتصنع لهم وبهم حضارة التقدم. هذا فضلا عن أن مريديها من أبناء العالم الثالث، ومنهم مثقفونا، لا يفعلون أكثر من أنهم يستهلكون أوروبا في أوطانهم دون أن ينتجوا المعاصرة تماما كما يفعل اقتصادهم"<sup>1</sup> والانكفاء إلى الماضي ليس رهانا كافيا لمواجهة تحدي العصر. كلتا الحالتين تقود إلى الغربية: الغربية عن الحاضر.

والمفارقة في أوروبا صنعت أمجادها بنفسها، لا غيرها ولا بالتقليد، والماضي العربي الإسلامي صنع أمجاده بنفسه بحاضره، وبالاجتهاد وبالانفتاح على الثقافات العالمية لا بالانكفاء النكوصي. وكلا النظامين، الأوروبي والعربي-الإسلامي، كان يملك الثقة بالذات والعقل المنفتح، وهذا هو ما يفتقده عقل النخبة الثقافية العربية المعاصرة، بجميع أجنحتها، فهو لا

1 عبد الإله بلقزيز، إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1992م، ص53-54.

يزال يواجه الشاهد بالغايب، ويعيش عالمة على الماضي العربي-الإسلامي، وعلى أوروبا ومن ثمة على نفسه. هكذا يتخلى عن أن يكون جديرا بمنافسة أوروبا.

ومن هنا فإن المثقف في المجال العربي والإسلامي، بحاجة إلى تطور نوعي في مسيرته في الواقع العربي والإسلامي، حتى يتسنى له ممارسة دور أكثر حيوية وفاعلية. وفي تقديرنا أن التطور النوعي في أداء المثقف بحاجة إلى النقاط التالية<sup>1</sup>:

### من الانفعال إلى الفعل

سيبقى المثقف في المجال العربي والإسلامي أسير الكثير من الصراعات الفكرية التي تبعده عن قضاياها الجوهرية، وأموره المهمة، مادام مرتكسا في حالة الانفعال وردود الأفعال. لأن هذه الحالة تدفع بالمرء إلى الدخول في معارك وأعمال، لا تعتبر ذات أولوية في حياته. إلا أنه، وانطلاقا من تداعيات حالة الانفعال، ينخرط فيها. وهذا بطبيعة الحال يشنت جهده، ويجعله بعيدا عن أولوياته والقضايا الجوهرية التي ينبغي أن يولمها العناية والاهتمام. لذلك فإن المثقف اليوم مطالب، ولأسباب عديدة،

1 المرجع السابق، ص 29-30.

بتخطي حالة الانفعال إلى الفعل التي تؤهله نفسيا وعقليا وثقافيا لممارسة دور أكثر إيجابية لصالح أمته ووطنه.

وتخرجه حالة الفعل، على مستوى الموضوعات والقضايا، من ذلك الحقل الذي شيده السابقون، سواء على صعيد أسئلتهم الثقافية والفكرية أو على صعيد الإجابات التي قدموها.

### وبكلمة

فإن حالة الفعل تؤسس لذاتية ثقافية فاعلة، وتسعى بكل إمكاناتها المعرفية والاجتماعية لتوفير إجابات نوعية شاملة عن أسئلة الراهن وهمومه الكبرى. وبهذا يخرج المثقف من أجواء التطاحن الفكري التي تقوده، ضمن أجواء هذا التطاحن، إلى الإصرار التعسفي بأرائه واختياراته الفكرية، حتى لو تبين له سقمها أو عدم ملائمتها للواقع المعاش<sup>1</sup>.

### الإبداع

إن بذرة الإبداع تنمو في حياة المثقف حينما يبدأ التفاعل مع قضايا عصره وعلومه وفق منهجية مدروسة وواعية. ويبدأ هذا التفاعل بنقد الواقع معرفيا ومن ثم تبدأ حالات الإبداع لأنه

1 عبد الإله بلقزيز، إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، ص30.

ليس وليد الفراغ وإنما هو حصيلة الخبرة والتجربة والمعاناة والتفاعل المباشر مع قضايا المجتمع والأمة.

فالإبداع الذي نراه ضروريا للتطور النوعي في مسيرة المثقف ليس مقطوع الصلة بالواقع الثقافي القائم، بل هو ينطلق منه دون أن ينحبس فيه، من أجل تأسيس منظومة ثقافية جديدة تعيد للمثقف حيويته ودوره في إعلاء شأن الوطن والأمة، لأن الإبداع يعني فيما يعني فتح مغاليق الأمور، واكتشاف سبل جديدة لخروج الواقع الثقافي من محنته.

لذلك فهو يتعاطى مع الواقع الثقافي، بمفرداته المتنوعة، من أجل إعادة صياغته بما يساوق دور الأمة التاريخي، ودورها تجاه التحديات المعاصرة.

فالمثقف مطالب بأن يتجاوز كل القيود الواعية وغير الواعية على فعاليته الفكرية، حتى يتمكن من ممارسة دوره الإبداعي، فالإبداع انتقال المثقف من حالة الانفعال واللهث الفوضوي على المنجز الثقافي والمعرفي، إلى الفعل والمشاركة والإنتاج الثقافي والإنساني. وهما شرطا خروج المثقف من أزمته التاريخية، لأنهما سيوفران الظروف المواتية لكي يتبوأ المثقف الموقع اللائق بإمكاناته وأدواره المفترضة. وإنما في هذا الإطار بحاجة إلى رؤية عربية وإسلامية رحبة، لكي يتجاوز الوعي العربي

والإسلامي انقسامه، وحتى يتأسس الأفق العربي والإسلامي الجديد، والبعيد عن احتمالات حروب النبذ والإقصاء والإنكار والانتهاكات الرخيصة والسطحية، ونخطو خطوة شجاعة نحو تأسيس فضاء معرفي يتسع للحوار والاعتراف والاختلاف في إطار ودائرة المعرفة لا الإيديولوجيا<sup>1</sup>.

### مفهوم المثقافة (Acculturation):

هي التبدل الحاصل في ثقافة جماعة، يسبب تقبلها عناصر ثقافية مميزة لجماعة أخرى، ويكون هذا التبدل متبادلا (transculturation) ولكن غير متعادل في الغالب، كما يمكن أن يؤدي إلى ضياع شبه تام للثقافة الضعيفة والقديمة (déculturation)، وتشكل النسب الديمغرافية أكثر من سواها، عنصرا هاما -وليس وحيدا- في هذه العملية ذات العناصر العديدة والمعقدة والمتحركة العائدة لخصوصية كل بنية ثقافية<sup>2</sup>.

إن العلاقة بين الثقافات تأخذ مجموعة من الأشكال، ويعد الاتصال والتداخل والتماس من أهم أوجه هذه العلاقة، حيث

1 المرجع نفسه، ص31.

2 Ralph linton, Les Fondateurs culturels de la personnalité, paris, dunod, 1959, p74.

تتداخل الثقافات فيما بينها في تفاعل وتبادل، ينبني على الحوار والتواصل الفكري الذي يحقق التفاهم والتقدم وبناء العمران البشري، بما يعود بالنفع على المجتمع وسيرورة تطوره. بيد أن هذا التفاعل أصبح يحمل في طياته التبعية والغزو، بهدف السيطرة والتحكم في الشعوب المستضعفة من طرف شعوب أخرى قوية. وبالتالي، سيكون لزاما علينا التطرق أولا لمفهوم المثاقفة باعتباره مفهوما مؤسسا وسابقا، وشكلا من أشكال العلاقة بين الثقافات التي تأخذ أوجهها مختلفة ومتنوعة.

جاء مصطلح المثاقفة على وزن مفاعلة وهو من فعل ثاقف، "وثاقفه مثاقفة وثقافا: فثَقِفَهُ كَنَصَرَهُ: غَالِبَهُ فغلبه في الجِدْقِ، والفِطَانَةِ، وإِدْرَاكِ السَّيِّئِ وَفِعْلِهِ"<sup>1</sup>. وبهذا المعنى، ارتبط مفهوم المثاقفة لغة بالغلبة والفتانة وإدراك الشيء. كما "يستعمل مفهوم (المثاقفة Interculturalism) في الغالب للدلالة على التفاعل بين ثقافات مختلفة في التأثير والتأثر، وفي التمثل والتبادل (صيغة مفاعلة في اللغة العربية تفيد

1 السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، مصطفى الحجازي، باب الفاء، فصل الثاء والفاء، مطبعة حكومة-كوبي، 1996م، ص 63.

المشاركة). تحيل (المثاقفة) -كما هو معلوم- إلى الاقتباس المتبادل بين الثقافات"<sup>1</sup>.

وإذا رجعنا إلى أول ظهور لمصطلح (المثاقفة Acculturation)، فقد كان أنثروبولوجيو أمريكا الشمالية سباقون إلى استحدثائه، حيث "تعود أول نشأة لهذا المصطلح إلى عام 1880 على يد الأمريكي (جون ويسلي باول John Wesley POWELL)، والسابقة (a) (Le préfixe) لمفردة (Acculturation) هي مشتقة من السابقة اللاتينية (ad) التي تدل على (الاقتراب أو الدنو). في حين كان الإنجليز يؤثرون استعمال مصطلح (التبادل الثقافي Cultural exchange)، أما الإسبان فقد كانوا يميلون إلى اعتماد مصطلح (المناقلة الثقافية Transculturation). بينما فضل الفرنسيون التعبير عنه بمصطلح (تداخل الحضارات Interpénétration des civilisations). غير أن مصطلح أمريكا الشمالية (المثاقفة Acculturation) هو الذي فرض انتشاره وتداوله في نهاية المطاف"<sup>2</sup>. غير أن المفهوم سوف يتطور بعد ذلك، مع بروز تيارات مختلفة ومتعددة، حيث سيعبر بشكل جلي

1 إيريك فيشر ليشته، من مسرح المثاقفة إلى تناسج ثقافات الفرجة، ص 14.  
2 سارة بوزرزور، الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر، المجلد 09، العدد 07، منشورات جامعة بشار، الجزائر، 2017م، ص 209-210.

على الاحتكاك والالتقاء والتماس بين الثقافات، وأن هذا الشكل سيأخذ أشكالا متنوعة حسب نوع الثقافة ودرجة قوتها.

وقد عمل الأنثروبولوجي (ملفيل جون هيرسكوفيتش Melville Jean Herskovits) على اقتراح تعريف لمصطلح الثقافة، إذ يقول: "تشمل الثقافة جميع الظواهر الناتجة عن الاتصال المستمر المباشر بين أفراد ينتمون لثقافتين مختلفتين، وما يترتب عن ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية عند إحداها أو كليهما"<sup>1</sup>. في حين يعرفها عالم الاجتماع والأنثروبولوجي الفرنسي (روجي باستيد Roger Bastide) بأنها: "دراسة ما ينتج عن اتصال ثقافتين تتأثر وتؤثر إحداها في الأخرى"<sup>2</sup>. الثقافة إذن، من فعل ثقاف تحمل معنى المشاركة في التبادل والتفاعل، وهي تدل على أن الفعل حاصل من طرف الفاعل والمفعول فيه بطريقة تشاركية، وقد تكون هذه المشاركة بين طرفين أو أكثر، حيث هناك علاقات تفاعلية تبادلية بين المتثقافتين، تتيح لكل طرف الأخذ والاستفادة من ثقافة الآخر.

1 Melville Jean Herskovits, Les Bases de l'Anthropologie Culturelle, Maspero, Paris, 1967, p 205.

2 سارة بوزرزور، الترجمة والثقافة، ص 210.

المثاقفة تفيد، في شكلها الطبيعي، معنى التفاعل والمشاركة المتبادلة والحوار بين الثقافات، وبذلك تعد وسيلة من وسائل الانفتاح على الآخر، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم الاندماج بشكل كلي في ثقافته، أو الانغلاق في ثقافة الأصل بشكل مطلق، من أجل الاستفادة من الخبرات والتجارب للمساهمة في البناء الحضاري المشترك، فهي "تساعد على معرفة الآخر، مثلها مثل الثقاف Acculturation، وتحدد المثاقفة، في أبهى تجلياتها بوصفها سعيًا نحو الانفتاح على الآخر من دون الانصهار في ثقافته، وإبراز الذات دون انغلاق مطلق"<sup>1</sup>.

إن الميزة التي تنطوي عليها المثاقفة تكمن في كونها تكتسي إلى جانب الثقافة طابعا إنسانيا، "فالثقافة والمثاقفة أمران إنسانيان، ولا بد من الالتزام بهما بما هما كذلك، ومن هنا كانت مسألة القيم الروحية مرتبطة بمسألة الالتزام بهما"<sup>2</sup>. إنها في الأصل تفاعل اختياري مفتوح، لا تجنى ثمارها إلا برغبة تبادلية بين المتثاقفين، تنتج عن الانفتاح على ثقافة الآخر من أجل الحوار والتواصل الإيجابي المثمر، ولا يمكن أن تتحقق أبدا في

1 إيريكا فيشر ليشته، من مسرح المثاقفة إلى تناسج ثقافات الفرجة ص 14.  
2 تسيير شيخ الأرض، الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي، دار الوحدة السورية، سورية، 1989م، ص 14.

حالة الاختلاط القسري القهري الناتج عن الحروب والاحتلال، إذ ينجم عن ذلك حدوث تشوهات ثقافية لا تتمتع بأية سمة من سمات المثاقفة الطوعية الداعية للحوار والتعايش. بمعنى آخر، المثاقفة تقوم على أساس التساوي والاحترام المتبادل والتسامح والاعتراف بالآخر وحقه في الاختلاف، وهي تراعي التفاعل والتواصل بين الأفراد أو الجماعات المثاقفة بهدف الاغتناء المتبادل، وكذا توفير شروط الثقة والرغبة لتحقيق التفاعل المشترك والاعتراف المشترك لضمان التقدم والتطور المتبادل، وإكساب واكتساب المعارف والعلوم والخبرات والتجارب الإنسانية، لتحقيق نهضة حضارية مشتركة، بعيدا عن التعصب والصدام، والتحكم والسيطرة على الآخر وتقزيم قيمته والحكم عليه بالذنيوية.

من خلال ما سبق ذكره، يمكن القول إن فعل المثاقفة حتمي الحدوث لأنه من المستحيل أن تعيش الثقافة مغلقة، لأن المسألة تتعلق بالإنسان وما يحيط به، ومن هنا يصعب عليها أن تحيا ضمن نظام لغوي ورمزي بمعزل عن العالم وتحولاته الفكرية والعلمية والأدبية. وإذا كانت الثقافة فعلا تؤدي إلى قيام الحضارة وتضمن استمرار تطورها، فإن المثاقفة تفاعل بين الحضارات على مستوى الثقافات. ما من مجتمع إلا وله ثقافته،

حتى وإن كان بدائيا، فيها يدخل في تفاعل ثقافي مع ثقافات أخرى، وعن هذه العلاقة تتولد مثاقفة تنحو نحو الانفعال أو الفعل أو التواصل، وذلك عبر طرق مختلفة منها: الهجرة، الرحلات، الدراسة، الأسفار، الاستعمار، المبادلات التجارية، الجوار، الترجمة ... وغيرها، ومن خلال هذه الطرق تؤدي المثاقفة إلى اكتساب عناصر جديدة بالنسبة لكلتا الثقافتين المتصلتين. لكن يبقى السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح، هل المثاقفة دائما لها وجه إيجابي يتمثل في التواصل الحوار بين ثقافتي الأنا والآخر، أم تخفي وراءها السيطرة والتحكم والتبعية؟

### التناسج الثقافي:

جاء مفهوم التناسج في إطار المشاريع البحثية الجديدة التي حاولت تفكيك مفهوم المثاقفة وتحديد خلفياته وأبعاده، بعد ما ساد هذا الأخير في مرحلة ما بعد الاستعمار، كما أكدت على ذلك الدراسات الاستشراقية، إذ لعب أدوارا كبيرة في تكريس فلسفة السيطرة والاستنقاص وإضعاف ثقافة الآخر، وفي مقابل ذلك، الرفع من قيمة ومركزية الثقافة الغربية، مما يجعل السؤال مشروعا في هذا الإطار حول هذا المفهوم الجديد. فلماذا استبعدت المثاقفة؟ وما هي مبررات التناسج الثقافي؟ وهل يعتبر هذا تجديدا وتنوعا مفاهيميا فقط؟ أم برزت الحاجة

لإعادة النظر في ترسانة المفاهيم بحكم المستجدات في عالم الثقافة؟

قبل الخوض في تحديد التناسج الثقافي لابد من الوقوف أولاً على الدلالة اللغوية والاصطلاحية لمفهوم التناسج، ومنه إلى تحديد التناسج الثقافي. فقد "جاء مصطلح التناسج على صيغة التفاعل، وأشهر معاني وزن تَفَاعُل، المشاركة بين اثنين فأكثر. أما المعنى الثاني فهو التظاهر ومعناه الادعاء بالاتصاف بالفعل مع انتفائه عنه. والمعنى الثالث هو التدرج أي حدوث الفعل شيئاً فشيئاً. وأما المعنى الرابع فهو المطاوعة"<sup>1</sup>.

ومن هذا المنطلق، يشير التناسج إلى معاني ودلالات متنوعة ومختلفة، متقاربة أحيانا ومتباعدة ومتنافرة أحيانا أخرى، فالمشاركة تتطلب عنصرين أو فردين على الأقل تجمعهما علاقات وقواسم مشتركة، وهذه الأخيرة تتطلب التطويع الذي يحتاج إلى التدرج والتسلسل. أما بخصوص التظاهر والادعاء، وهو الأمر الذي يسير ومفهوم المثاقفة، باعتباره يشير في الأصل إلى التواصل والحوار والموازنة بين طرفين. ويمكن القول كذلك أن "التناسج من فعل نسج أي جمع

1 عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، دت، دط، ص 36.

بعضه إلى بعض، ومن المجاز، نسج الكلام إذا لخص الشاعر الشعر: نظمته وحاكه والكذاب الزور: زوره ولفقه"<sup>1</sup>. إنه الجمع والنظم والتركيب بين عناصر وأجزاء متنوعة من أجل تكوين شكل جديد أو نوع جديد مكون من الأجزاء المركبة المنتقاة. وفي نفس السياق، أكدت إيريكافيشر: "إن استنباط مفهوم التناسج ولحظة تشكله، ومأزقه ومقوماته، لهو مغامرة حقيقية، إذ أنه من الصعب مثلا ترجمة الكلمة الألمانية Verflechtungen التي تتضمن معاني عدة، منها: (الطي) و(التدخل) و(الربط) و(التشابك) و(الإشكالات المفتوحة). ومع ذلك، استقر الاختيار على Interweaving بالإنجليزية، والتي سبق أن اقترحت ترجمتها إلى العربية عام 2009 بـ (تناسج)"<sup>2</sup>.

فعلا، إنها مغامرة نظرا لتداخل معاني ودلالات نفس الكلمة من لغات مختلفة. وتضيف فيشر في نفس الصدد، "إن اختيار استعارة ترمز إلى عالم النسيج بوصفها لازمة للمنشغلين بسيرورات التناسج، توحى بازدواجية وظيفة (عملية التنسيج) التي تعمل على مستويين: التثام العديد من الخيوط الحريرية في ضفيرة واحدة، وتشابك هذه الضفائر بدورها لتنسج قطعة ثوب

1 السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، ص 237.

2 إيريكافيشر ليشتة، من مسرح المثاقفة إلى تناسج ثقافات الفرجة، ص 50.

واحدة أو شراريب قماش .... حيث يصعب عزل عناصر من ثقافة ما عن أخرى، ذلك أنها تخضع لمنطق التحول التاريخي، الجمالي، وموقع الناسج<sup>1</sup>. (The weaver) هي إحياءات وإشارات إلى الطريقة التي تتم بها عمليات الجمع والتنظيم والنسج بين مجموعة من العناصر المختلفة، والتي تتوافق بشكل متراكب ومنسوج، ولو لم يتم التمييز بين الأجزاء من أجل إنتاج جديد مخالف للشكل الأول وغير مشابه لكل جزء من الأجزاء المنتظمة.

مما سبق، يمكن القول أن (التناسج) هو عملية انتقاء وتنظيم وتركيب وتشابك مجموعة من الأجزاء المتوافقة والمتلائمة والمنسجمة فيما بينها بطريقة مدمجة، لدرجة يصعب التمييز بين عناصرها المتداخلة، مما يعطي شكلا جديدا مختلفا لا يشبه أي جزء من الأجزاء المركبة، حيث يتشكل معه نموذجا مقصودا ومرغوبا.

أما بخصوص (التناسج الثقافي) فهو يتشكل من كلمتين رئيسيتين هما: التناسج والثقافة. فقد أصبحت العديد من الأشكال والعناصر الثقافية محل تأثير وتأثر، بما في ذلك الدين

---

1 المرجع نفسه، ص 51.

والعادات والقوانين والفنون وطريقة العيش وغيرها بين الشعوب، مما نتج عنه تداخل وتحول عن طريق التفاعل الدائم بين الناس، الأمر الذي يستحيل معه الحديث عن ثقافة نقية مستقلة بذاتها وثقافة غير نقية، ونتيجة لذلك، خضعت الثقافة للتحوّل والتغير بشكل دائم، مما استحال معه رسم خط واضح بين ما هو لنا وما هو ملك لغيرنا، لكن أيضا هذا لا يعني أنه لا وجود للاختلافات بين الثقافات، وأن هذه الاختلافات ليست ثابتة وأبدية، بل يتم توليدها بشكل دائم.

نتج (التناسج الثقافي) بفعل ما خلقته (المثاقفة) من استغلال وتحكم وإقصاء للشعوب المستضعفة عن طريق الثقافة، "فعلى الرغم مما يثار من نقاش حول المقصود بالتناسج، والذي قد يفهم بوصفه إبدالا فقط لمفهوم المثاقفة. ونشير في سياق حديثنا الراهن، بأن الإبدال أو الاستبدال لا يستفاد منه الانفصال التام دائما. ذلك أن التناسج مبني على منطوق آخر للنقاش يبرز العناصر المضمرة في رحلة المثاقفة. كما يعيد إثارة أسئلة أخرى تتأسس على منطوق الاستيعاب والتجاوز، لا منطوق القطيعة والانفصال..."<sup>1</sup>. وبهذا المعنى، جاء (التناسج الثقافي) من أجل الكشف عن المضمرة وإعادة الاعتبار

1 إيريك فيشر ليشتة، من مسرح المثاقفة إلى تناسج ثقافات الفرجة، ص 52.

لثقافة الهامش التي نعتت دائما بالفارغة والسلبية في مقابل ثقافة المركز من خلال رؤية واضحة المعالم تتجسد في طريقة وشكل ومعايير التفاعل والترابط بين الثقافات.

يمكن القول، إن (التناسج الثقافي) هو عملية تناسجية بين ثقافتين أو أكثر، غربية أو غير غربية، تنبني على استلهام أجزاء أو عناصر أو مكونات أو أشكال معينة من ثقافة لإدماجها في ثقافة أخرى مخالفة أو مشابهة، بعد عمليات الانتقاء والتنظيم والتركيب بطريقة متوافقة ومنسجمة ومتناغمة لتشكيل شكل أو نوع ثقافي أو تعبيرات ثقافية مقصودة ومرغوبة، في حلة جديدة مخالفة لكل الأجزاء المنسوجة، والإدماج هنا يطرحنا أمام التعقيد الذي تتم به عملية التركيب.

يمكن وصف تناسج الثقافات بكونه جمالية معينة، إنه استشراف على مستوى الثقافة لشيء سيصبح واقعا اجتماعيا، إذ أنه يقوم على سيرورة تفاعل ثقافات معينة، حيث تتداخل الثقافات دون مسح اختلافاتها أو إقصاء بعضها بعضا، لأن الأمر لن يبقى حكرا على ثقافة الآخر، بل سيتجاوزه إلى ثقافة الأنا التي يمكنها كذلك المساهمة في إغناء التحول الثقافي والرفع من قيمة وفعالية ثقافتها أمام الآخر، من أجل تمثل حقائق جديدة هي حقائق المستقبل. لكن، هل يمكن أن يتحقق مشروع (التناسج

الثقافي) فعلا؟ هل سيكون له آثار إيجابية على العلاقات بين الشعوب خاصة؟ وهل يمكن من خلال البحث في بعض النصوص المسرحية على وجه الخصوص أن نجد معالمه وتجلياته؟

عرف مفهوم الثقافة مجموعة من التحولات على مر التاريخ، اكتسب خلالها دلالات ومعاني مختلفة ومتشعبة، بدأ من الدراسات الأنثروبولوجية التي خصته بالدراسة والتحليل في علاقته بالمجتمعات البدائية خاصة مع كلود ليفي ستراوس، إلى حقل علم الاجتماع الذي حاول ربطه بخصوصيات وظروف وطريقة عيش الإنسان اجتماعيا في علاقته مع ما يحيط به. فإذا كان (إدوار تيلور) أول من اقترح تعريفا مفهوما علميا للثقافة، فهو ليس أول من استخدم هذا المصطلح، وهو نفسه كان، في استخدامه لهذا المصطلح متأثرا مباشرة بعلماء الإناسة الألمان الذين قرأ لهم، لا سيما (غوستاف كلیم G. Klimm) الذي كان يستخدم كلمة kultur بمعنى موضوعي.

فإذا كانت الثقافة موضوعة من الموضوعات التي تدرس في مختلف التخصصات الاجتماعية خاصة، فإن أهم طابع يميزها هو أنها مكتسبة وتختلف عما هو طبيعي، كما أنها انعكاس لطريقة عيش الإنسان، وطريقة تفاعله مع البيئة التي يعيش

فيها، كما أنها مظهر من مظاهر الحياة، لأن كل جماعة أو شعب له طريقة في العيش تختلف عن الآخر، بحكم الدين والعادات والتقاليد والطقوس المميزة له، أي مخزون الذاكرة الجماعية أو الضمير الجمعي الخاص به. وبهذا المعنى، تعد الثقافة ميزة خاصة وعامة في نفس الآن، إذ أن هناك خصائص ومميزات ثقافية تتعلق بجماعة اجتماعية معينة مما يميزها عن الأخرى، كما أن هناك عناصر ومميزات وقواسم تجتمع فيها جماعات اجتماعية متعددة داخل نفس الشعب أو الدولة، وقد تكون هناك قواسم مشتركة بين الشعوب والدول.

وإذا كانت الثقافة عند البعض هي البوابة التي يمكن من خلالها الولوج إلى الشعوب المسماة (مستضعفة) والسيطرة عليها من أجل تكريس المركزية الغربية وفق ثنائية الأنا والآخر، الضعيف والقوي، وغيرها من المفاهيم، فإنها عند البعض الآخر الفضاء البيئي الرحب للتفاعل والتواصل الدائم بين الثقافات، وفق لغة كونية للتلاقح والانفتاح والتناسج الثقافي الدائم، بما يفتح المجال لتحقيق نهضة حضارية مشتركة تأخذ فيها كل ثقافة قيمتها التي تستحقها دون إقصاء.

## صدمة المثاقفة:

لقد وفر التاريخ ظروفًا عدة للاحتكاك بين الثقافات حتى إنه لم يبرز ولم يسجل في الغالب سوى هذه الاحتكاكات على مختلف أنواعها ومستوياتها، مهملاً كل التواريخ المرافقة، ولكن هذا الاحتكاك/الثاقف، لم يكن في مرة من المرات متكافئاً بين ثقافتين، ولم يكن أيضاً معرفياً خالصاً، بل كان نتيجة (أثار حرب)، مع كل ما تبقّيه هذه الآثار من ذكريات عدائية مأساوية برموزها المعرفية في الوجدان والسلوك، إلا أن أهم ما في الأمر أنها أثار عاصية على الإزالة وعلى الفرز، إذ منذ اللحظة الأولى لحصول التثاقف تمحى تلقائياً الحدود القديمة السابقة له، ويتم استيعاب المنقول واستدخاله والتماهي به، فالتثاقف نفسه ليس ممكناً أصلاً لولا قابلية الاستيعاب، ووضعية الشغور، والتواطؤ، وضغوط حاجات التكيف ...

إلا أن التثاقف يفضح دائماً قصور كل ثقافة وفي الأن عينه، عجزها عن تجاوز هذا القصور بذاتها، وهو ينجز غالباً خارج رقابة السلطة وبغفلة عن عيونها، سلطة أولى الأمر، وأولي الرأي والمعرفة، ويكشف ثانياً محدودية رقابتها وتسلسلها ويتسلسل من غير ضجيج مستجيباً لثقافات حضارية ملحة ولحاجات عميقة وغير متوقعة.

إن موضوع التناقف بما هو تبدل في ثقافة جماعة (أو أفراد)، يسبب تقبلها عناصر معرفية وسلوكية من ثقافة أخرى متفوقة في الغالب، هو قانون تاريخي عام له مشروعيته الموضوعية.

وقد عرفت منطقتنا العربية منذ الحقبات التاريخية البعيدة، مثاقفات عديدة غير مدونة بالكامل بوقائعها وأسبابها وأزممتها، غلا أنها كانت بادية السمات والعناصر التراثية المشتركة للحضارات المختلفة اللاحقة، ومنها على وجه الخصوص اللغوية والدينية والاجتماعية ... التي استولدت شرعية مقولة الشرق، الثقافية-الحضارية، لا الجغرافية فحسب.

### الولوج إلى الحاضر:

كان يمكن للثقافة العربية أن تحيا حياة دينامية بتناقضاتها الداخلية، وأن تتجاوز أزممتها التاريخية المرحلية، في إطار صراع فكري، لا توفر شروطه الصالحة والضرورية سوى ساحة ديمقراطية حقيقية، كان يمكنها أن تتوحد في هذه الساحة، تتوحد بتعدديتها كبنية غنية، بحيث هناك تيارات

متجاورة ولكنها غير متحاورة<sup>1</sup>، فالواقع العربي، بهذه الصورة ومع شح الديمقراطية وتغيب الحريات العامة، وفي ظل التهيب المتعدد الوجود والدلالات، هو في مأزق، والثقافة المحبطة من هذا المنظور ليست مجال رهان حقيقي.

إن وهن الثقافة العربية الراهنة ليس ناجما عن غربتها عن تاريخها، بل ناجم عن غربتها عن (تاريخيتها)<sup>2</sup>، أي عن عدم وعيها بشروط موقعها في بنية المرحلة التاريخية، ماضيا وراهانا، والذين يعتقدون بإمكان استعادة التاريخ، وبالحاجة إلى هذه الاستعادة من أجل علاج التحديات الراهنة، يجهلون علة الحقيقة أن التاريخ ليس مقولة منعزلة ومستقلة ومتحفية، فالحاضر هو خلاصة تاريخية متحركة تمثلها الوعي بنسيجها المتشعب أم لم يتمثلها، والتراث هو هذا التاريخ. بالمعنى الفينومينولوجي، كما يتمظهر في الوعي وفي سلوك الفردي والجماعي، وتجاوز التاريخ هو استحالة حضارية إذ الحضارة لا تعرف القفزات، وما نسميه بالقطيعة الثقافية هو استحالة

1 انطوان سيف وعي الذات وصدمة الأخر، في مقولات العقل الفلسفي العربي، دار الطليعة بيروت، 2001 ص23.

2 المرجع نفسه، ص25.

ابستمولوجية، وهذه الحقيقة ما هي إلا وثبة كبيرة باتجاه ثقافة الأخر المثقوفة.

وبالمقابل فالنظريات التراثية تبدو اختزالية وابتسارية، بحصرها التراث في المجال الديني وما يتصل به من قريب أو بعيد، جاهلة أن هذا التراث يعود إلى حقبة تاريخية عالمية وغير خصوصية هي المرحلة الشيوقراطية، ومن هنا فإن فكرة إمكانية استعادة هذه الحقبة تبدو معاندة لعالمية المرحلة الراهنة، وتنكرا لشروطها النفسية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية.

إلا أن الإيديولوجيات التراثية التي تتعرع في ظروف الهزائم والخيبات، هي بصورتها الظاهرة أحد رهانات التجاوز، ولكنها تبقى استجابة ناقصة لتحداً لا تتعامل معه، بل تقاطعه وترفضه وتتجاهله وتقصيه، ولكن الرهان الأجدى، هو المبني على معركة فكرية تعرف عناصرها معرفة معمقة، هذه المعرفة مستحيلة من غير الانفتاح على الخصم، إنه منطلق تاريخ الثقافة، وحياتها، ودورها. فالخصم هو ضرورة ثقافية<sup>1</sup>، نقيض ضروري، وتزداد قيمة مع قيمة طروحاته وتحديها لنا وقدرتها على زحزحة بني

1 المرجع نفسه، ص 26.

فكرنا، وتأخذ المثقافة معناها وتفي بمتطلبات وظيفتها، بقدر ما يقترب أطراف الثقافتين من التوازن في التحدي المتبادل، إلا أن وضع ثقافتنا العربية الراهنة لا يؤمن هذا التوازن، والخصم هنا، هو الغرب الأخر المتفوق، وبالتالي فإن (الغرب) كمقولة متحدية متفوقة هو ضرورة عربية ثقافية قبل أي شيء، إنه كنعقوض، ركن أساسي في المعادلة الجدلية، فواقعه كنعقوض متحد ومحرّض، هو (وظيفته)، ولا شك أن ميكانيزم التطور الثقافي العربي، مبني في هذه المرحلة التاريخية على هذه الضرورة، وعلى نوعية استجابتنا لها.

ومن هذا المنطلق، فإن الثقافة التي نحتاجها من الآخرين، ليست ثقافتهم الخصوصية الخاصة، بل تلك التي لها سمات عالمية، فهي ملكية بشرية عامة، ولا أهمية للنظر هنا إلى مصادرها القومية والفردية، إذ هناك خصوصية للثقافة تجعلها تنجح إلى العالمية، وتأخذ قيمتها من هذا الجنوح نفسه، أي من عالميتها، لا من خصوصيتها المنغلقة على نفسها، تأخذها من إبداعها وحده.

نحن لا نستعير (ثقافة) للولوج إلى هذا العصر، إننا نرى شروط القدرة على المعرفة التي هي البوصلة لخياراتنا، إن هويتنا الثقافية ليست مجموعة مقولات قديمة وجامدة، فهذه

أوهام الهوية الثقافية لا جوهرها، موميأؤها لا حياتها، فالهوية الثقافية أبعاد أخرى كثيرة، إضافة إلى التراث الماضي، وهذا بقدر بعد الحاضر وإمكاناته وخياراته، وخصوصا بعد المستقبل المستمر<sup>1</sup>، ليس ثمة اليوم أسرار معرفية عند الآخر، بل عندنا عجز معرفي، هذا العجز هو عدونا الحقيقي، لأنه يربك معركتنا ويسرق منها وظيفتها التغييرية ويصادر رهاناتها، والأمر يحتاج أيضا إلى شجاعة أدبية للتفرس بمرآتنا المتصدّعة، إنها على الحقيقة معركة مزدوجة متلازمة الازدواج، ومتكاملة الازدواج، مع ذاتنا ومع الآخر، ولنتعرف على الخيبات والانتصارات الجزئية، يكفيننا أن نبدأ بهذا الوعي، وسنصل، لأن الوعي وحضور بنوده ومفرداته في حياة الإنسان "هو المهاد الفكري الضروري للانعتاق والتحرر من قيود التقليد وأغلال التبعية وتحديات العولمة، والانطلاق من أفاق نوعية إلى الأمام"<sup>2</sup>، وحتى يكون هذا الانطلاق فعالا، من الضروري أن نوضح دور النخبة المفترض في الوسط الاجتماعي.

1 انطوان سيف وعي الذات وصدمة الآخر، ص31.

2 محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة، ص116.

## 1- صناعة الوعي:

إن الدور الاستراتيجي الذي يجب أن تقوم به النخبة في مجتمعها، هو خلق الوعي وتعميم المعرفة في الوسط الاجتماعي، لأنه لا يمكن للمجتمع أن يمارس دوره ويقوم بواجباته، ويتجاوز عقباته، وينتصر على مشاكله إلا بالوعي، فهو البوابة الحيوية لكل ذلك.

فالوعي هو الذي يصنع المجتمع القادر على تحمل مسؤوليته والقيام بواجباته، ولم يحدثنا التاريخ عن مجتمع جاهل لا يفقه واقعه ولا يدرك مسؤوليته، استطاع أن يصل إلى تطلعاته أو حقق أهدافه، دائما الوعي هو الصفة الملازمة للمجتمع الحي المتجه صوب أهدافه بجد وحيوية.

فالأفكار هي التي تصنع الأمم والشعوب، لهذا فإن دور النخبة يتجسد في صناعة الأفكار والرؤى التي تقود إلى تقنية الخيارات الاجتماعية، وتحقيق التطلع الحضاري<sup>1</sup>.

فالنخبة "هي الفئة الاجتماعية التي تصوغ وعي الأمة وتقودها ... هي التي تتلقى مشاعر الأمة وأماليها النابعة من حاجاتها الراهنة والمستقبلية والمتأثرة بتاريخها وتراثها، تتلقاها

1 المرجع نفسه ص56.

وتحولها إلى وعي، وتحول الوعي إلى إرادة، وتحقيق الإرادة في انجازات. إن النخبة، إذ تصوغ وعي الأمة، تنقل كل ذلك من لا وعي الأمة الموضوعي إلى حيز الوعي الذاتي ... والنخبة إذ تقود الأمة فهي تنقل نشاطها في المقابل، من حيز العمل اليومي الغارق في الجزئيات، إلى مستوى العمل الإرادي الفاعل النابع من رؤية شمولية"<sup>1</sup>.

## 2- المساهمة في صناعة الإنجاز:

مهما يكن جسم النخبة وفعاليتها وإمكاناتها، فإنها ليست بديلا عن المجتمع وحركته. ويخطئ من يعتقد أن النخبة، بوعيمها الفذ وأنشطتها المتواصلة، تشكل بديلا مستمرا عن حركة المجتمع. لذلك فإن دور النخبة ليس الحلول محل المجتمع، وتأدية أدواره، والقيام بمهامه، وإنما دور النخبة بالدرجة الأولى يتجسد في صناعة الرأي وتوضيح سبل التقدم، والمساهمة في خلق العوامل الذاتية والموضوعية لانطلاقة المجتمع ومباشرة دوره الحضاري.

1 الفضل شلق، النخبة العربية والقمع الذاتي، ص 49.

### 3- المحافظة على الإنجاز:

إن النخبة الجادة في تطوير مجتمعيها، وسد ثغراته، وإنهاء نقاط ضعفه، هي تلك النخبة التي لا تكتفي بالمساهمة الجادة في صنع المنجز الإنساني والحضاري، بل تتعدى ذلك إلى بذل الجهود، وتكثيف الأنشطة المتجهة إلى المحافظة على تلك المنجزات.

والحفاظ على المنجز لا يأخذ صيغة واحدة أو حالة من النمطية الثابتة. وإنما لكل حقل وتخصص ونمطه المحدد وطريقة مناسبة للحفاظ على المنجز. فالمنجز الثقافي يحافظ عليه عبر مأسسته وتحويله من منجز شخصي إلى عمل مؤسسي يثري المجتمع ثقافيا ومعرفيا، وهكذا بقية الحقول والجوانب.

والعملية الاجتماعية السليمة لا تتحقق من جانب واحد كدور النخبة فقط، وإنما هي عملية متكاملة ... فكما أن النخبة تتحمل مسؤوليتها ودورها في تطوير المجتمع، كذلك المجتمع بقطاعاته المختلفة يتحمل مسؤوليته، وينبغي أن يمارس دورا في تطوير الشأن العام.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، نستطيع أن نحدد سبيل التكامل بين النخبة والمجتمع في إطار التفاعل الإيجابي المتبادل

بين الطرفين. فالتفاعل بجميع أشكاله الفردية والجمعية، هو الطريق الحيوي لخلق حالة من تكامل الأدوار والمهام بين النخبة والمجتمع<sup>1</sup>.

وهكذا يتم الوصل والاتصال بين النخبة والمجتمع، الذي يشكل الوعاء الحاضن، والإطار المناسب الذي تنمو فيه كل عمليات التجديد والإبداع الثقافي والمجتمعي. وبالتالي، فإن الانتماء إلى إطار النخبة ليس مسألة تشريفية بل تكليفية، تجعل التفكير في الشأن العام وتطويره أحد الهموم الرئيسية، التي تحملها النخبة في تفكيرها وبرامج عملها، ونجاح النخبة في دورها مرهون بمدى إنهاء حالة الجمود في الحركة الاجتماعية<sup>2</sup>.

#### 4- الإنفتاح والتفاعل:

وهذا يتطلب في البدء نزول بعض المثقفين من أبراجهم العاجية، والتخلي عن موقف الانعزال والانطواء، والبدء بالدخول في ساحة المجتمع والوطن، والعمل معه على تحقيق التطلعات النبيلة التي يسعى إليها المجتمع.

1 محمد محفوظ الحضور والمثاقفة، ص 56-57.

2 المرجع نفسه، ص 57.

لذلك فإن الأمور المهمة التي ينبغي أن يقوم بها المثقف اليوم الخروج من إسهار العزلة والانغلاق، والدخول في رحاب الوطن والمجتمع... ذ أن النقاش أو تقديم الأطروحات والمشاريع خارج الواقع أو ما يعبر عنه بالسكولاتيكية لا يؤدي إلى فاعلية المثقف في الوطن، بل يمنعه من تجديد أدواته وطرائقه، ويجعله لا يعيش الواقع إلا على مستوى القضايا والأفكار المصاغة مسبقا وهي معاناة من الدرجة الثانية أو من وراء حجاب.

لذلك فإن المهام والأدوار الأساسية الملقاة على عاتق المثقف مهمة الانفتاح على الناس، والتفاعل مع قضايا الوطن، وبطبيعة الحال فإن هذا الانفتاح والتفاعل هو الذي يلغي الحواجز ويسمح بإقامة علاقة ثابتة وحقيقية مع أبناء الوطن، تجعله يدرك متطلباته من الداخل، ويزرع بذور التفاعل الايجابي بين المثقف وقضايا الوطن المختلفة.

كما أن عملية الانفتاح والتفاعل مع قضايا الوطن هي التي تخلق الشروط الذاتية والموضوعية، لنمو الثقافة وحيويتها في المحيط الاجتماعي، لأن عملية الإبداع الثقافي لا تأتي خارج أطر الثقافة وما تفرضه من شروط اجتماعية، بل تأتي حينما يتحمل

المثقف مسؤوليته الوطنية، ويسعى نحو بلورة الوعي الثقافي القادر على وثب روح الفاعلية في البناء الاجتماعي.

### 5- تأكيد وإبراز هوية الوطن والمجتمع:

يتساقق ويتمائل مفهوم الثقافة ومفهوم الهوية، إذ إن الثقافة في المجتمع تشكل نظاما، متكاملا بحيث إنه لا يمكن الفصل بين الهوية والثقافة في المجتمع، لأن الثقافة والهوية عبارة عن نظام القيم والمعايير الذي ينظم حياة الجماعة، ويتحكم بسلوك أفرادها وسلوكها الجماعي واستمراريتها.

وعلى ضوء هذا فإن الرأسمال الثقافي والعلمي الذي يمتلكه المثقف ينبغي توظيفه وبذله في تأكيد هوية المجتمع والوطن وإبرازه في مسيرة البناء والتنمية، لأن "الثقافة لا تفهم إلا باعتبارها مظهرا للوعي الذي يستوعب الإنسان من خلاله، فردا وجماعة، العالم ويفهمه ويجعله شفافا، أي قابلا للتمثل في الذهن، ولا تفهم أيضا إلا باعتبارها استجابة لواقع موضوعي، قائم خارج الذهن يفرض نفسه بصرف النظر عن الفكرة أو الصورة التي يضعها له الوعي، بيد أن هذا الوعي وذاك<sup>1</sup> الواقع لا يخلقان ثقافة إلا عبر المجتمع والجماعة، باعتبارهما صيرورة

1 المرجع نفسه، ص 61.

تاريخية، أي كيانا متبدلا ومتغيرا ومستقرا في الوقت نفسه، فمن خلال هذا الاجتماع يصبح الواقع الموضوعي والخارجي واقعا تاريخيا وواقعا ذاتيا أو للذات خاصا بخبرة الجماعة وبما تضعه منه<sup>1</sup>.

لهذا فإن من المهمات الأساسية للمثقف مهمة تأكيد وإبراز هوية وطنه ومجتمعه، حتى تتكامل العلاقة بين أفراد المجتمع والعناصر الأساسية والجوهرية ونظام قيمه الأساسية.

#### 6- تنمية المعرفة:

أو ما يصطلح عليه بعملية التعليم المستمر، فلم يعد عمل المؤسسات العلمية والثقافية مقتصرًا على تخريج أفواج من المواطنين فقط، وإنما تقع على عاتقها عملية ربط المؤسسات العلمية بقضايا الوطن وتطلعاته القريبة والبعيدة.

فما زالت الجامعات الأمريكية تعد نفسها، لكي تؤدي لمجتمعاتها خدمات في هذا المجال. ففي عام 1963 عقد نحو 60 ألف مؤتمر لمناقشة التعليم المستمر بالولايات المتحدة الأمريكية، وأنشئ 85 مركزا لتعليم الكبار على مستوى الجامعة،

1 برهان غليون إغتيال العقل، محنة الثقافة العربية بين السلفية و التبعية المركز الثقافي العربي ط1، 2012، ص88.

وأحد هذه المراكز عقد أكثر من 900 حلقة للنشاط والمناقشة حضرها أكثر من 120 ألف مواطن.

فإن المثقف، وهو يقوم ببرامج التعليم المستمر أو تنمية المعرفة في المجتمع، هو نفسه يتعلم وتزداد معارفه، لأن الأنشطة التي يقوم بها تعطيه خبرات متعددة، وتساعد على تطوير أفكار جديدة لبرامج مستحدثة<sup>1</sup>.

وجماع القول أن مهمة المثقف هي توفير الأسباب المختلفة للمجتمع، لكي يعيد اكتشاف ذاته وتقديم أهداف وقيم أساسية لأفراده تضي على أعمالهم وتصرفاتهم معنى إنسانيا، أي تجعلهم قادرين على تحقيق إنسانيتهم، وتوضح لهم طرق هذا التحقيق.

وبهذه الأدوار والمهام قوم المثقف بإغناء الثقافة ويجعلها نظاما متكاملًا من القواعد والقيم والمواقف والتوجيهات التي تخدم الوطن في حركة الحاضر وتطلعات المستقبل، وبهذا يسعى المثقف لبناء الإطار الثقافي والحضاري، الذي يؤسس لتحولات تاريخية.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص 62.

## الأمن الثقافي:

لم يعد الأمن الثقافي في حياتنا المعاصرة مجرد هدف ثقافي-فكري، وإنما أصبح هدفا حضاريا شاملا، ينطوي على جوانب سياسية ووطنية لا تقل أهمية عن جوانبه الثقافية.

فالأمن الثقافي يعد عنصرا لا غنى عنه من عناصر النهضة الاجتماعية، ومظهرا من مظاهر القدرة على التحرر والمؤثرات الخارجية الوافدة، فهو أعلى مظاهر استرداد الهوية التي سعت قوى الشر والبغي عبر التاريخ إلى إنهاء خطوط الدفاع الفكرية والعقدية، كخطوة أولى لعملية الاستيعاب والسيطرة. ويخطئ من يعتقد بأن الأمن الثقافي هو عبارة عن غلق الأبواب والانطواء على النفس وتكثير لائحة الممنوعات، والابتعاد عن وسائل الاتصال والإعلام الحديثة... فالأمن الثقافي لا يشكل حالة سلبية تتجسد في صد الناس عن المخاطر المحتملة.

إن الأمن الثقافي يعني توفير الثقافة الصالحة للناس حتى يتمكنوا من خلالها أن يعيشوا حياتهم المعاصرة بشكل سليم وإيجابي، وهو يعني بناء قوة الوجود الثقافي الذاتية، التي تقوى لا على المقاومة والصمود فحسب، وإنما على الاندفاع والملاحقة والفعل المؤثر... ولكي تتحقق هذه المقولة نعتقد أن مفهوم الأمن الثقافي يعتمد على عنصرين أساسيين:

1- الاعتزاز بالذات الثقافية الحضارية، لأن الذات الثقافية بمثابة الإطار أو الوعاء الذي يستوعب منتوج المثقف، لذلك فإن منتوج المثقف ينبغي أن ينطلق من الخطوط العريضة وروح الثقافة الذاتية، بما تمثله هذه الثقافة الذاتية من رموز وأفكار وقيم<sup>1</sup>.

والاعتزاز بالثقافة الذاتية لا يعني بالنسبة لنا أن نغلق أبوابنا على ما هو ليس في أيدينا وتتحكم به قوى أخرى خارجة عنا ... وإنما يعني أننا في البدء ينبغي أن نحقق ذاتنا الثقافية والحضارية، ونجعلها حاضرة في حركتنا الاجتماعية والثقافية. وننطلق من هذا الحضور الثقافي والحضاري للتفاعل مع الثقافات الأخرى ... ومشكلتنا المعاصرة ليست الثقافات الأخرى وقدرتها على الوصول إلى مخادع نومنا، وتطرق منازلنا في كل وقت وفي كل ساعة، بل في الممارسات التي نمارسها جميعا، وأفرادا ومؤسسات في خنق الذات الثقافية والتضييق عليها. لهذا فإن تجاوز الآثار السيئة والخطيرة للثقافات الغازية لمجتمعاتنا وشعوبنا هو ان نطلق الحرية لثقافتنا الذاتية بأن تعبر عن نفسها بأي طريقة شاءت. إن إعطاء المجال للثقافة الذاتية،

---

1 المرجع نفسه، ص 117.

رموزاً وأفكاراً، هو الخيار الاستراتيجي الذي نتمكن من خلاله تحقيق مقولة الأمن الثقافي.

وهذا نعطي للثقافة الذاتية الأفق الطبيعي للدفاع عن كينونتها الاجتماعية والتاريخية.

2- لانفتاح والحوار مع الثقافات المعاصرة، لأن الثقافة هي عبارة عن عملية مستمرة لا تتوقف عند حد أدنى تكتفي بتوفيره للناس، وإنما هي تهيئ الأرضية لعملية انطلاق ثقافي، تأخذ من الموروث الثقافي والانفتاح على الثقافة المعاصرة نقطتا انطلاق وارتكاز في جهدها الثقافي الراهن. فالأمن الثقافي لا يعني بأي شكل من الأشكال، الاحتفاء من الثقافة المعاصرة تحت متاريس الماضي ... بل يعني الاعتزاز بالذات الحضارية مع هضم معطيات الأخر الحضاري. لأن الانطواء<sup>1</sup> والانغلاق في القرون الوسطى السالفة، يعيدون كل البعد من إنجازات الإنسان المعاصر وأثار العلم وحسناته. وبالتالي فإن أي مجتمع لا يتمكن من صيانة أمنه الثقافي واستمرارية فعله الجماعي إلا بالاعتزاز بالذات الموصول بالانفتاح على منجزات العصر<sup>2</sup>.

1 المرجع نفسه، ص118.

2 المرجع نفسه، ص118.

وكل هذه الأمور تحفزنا للبحث عن الذات الثقافية وإبراز مضامينها وتطلعاتها، وتربية المواطن على ضوئها وهداها. وعن هذا الطريق يمكننا الحصول على الحد الأدنى من الأمن الثقافي المطلوب في عصر تكنولوجيا الاتصالات والأقمار الصناعية.

وتأسيا على ما ذكر أعلاه نقول: إن هناك بونا شاسعا بين الأمن الثقافي والثقافة الأمنية، فالأخيرة هي مجموعة من الأنشطة التي تستهدف خلق الوعي الأمني، أما الأمن الثقافي فالمقصود به هو بيان الأسس والقواعد المتوفرة في ثقافة ما، ثقافة تمنع حالات الاختراق الثقافي والغزو الفكري ... لهذا فإن الهدف من هذه المقالة ليس التأكيد على ضرورة الأمن للوقاية من الجرائم، على مختلف مستوياتها وأشكالها، وإنما هدف المقال هو محاولة استنطاق ثقافتنا الذاتية.

"إن الحوار ليس غاية في ذاته، ولكنه سعي نحو إمكانية التوافق حول قيم مشتركة، فلا جدوى من الحوار إذا ما تمسك كل طرف بخصوصيته المطلقة، وإنما يكون الحوار منتجا حين تتوافق أطرافه على قيم مشتركة والحوار الحقيقي، بمعنى التفاعل أخذا وعطاءً بين الثقافات، لا يكون ممكنا إذا كان كل طرف ينغلق على ذاته باسم خصوصية مكتفية بذاتها وهذا حال الأصوليين" الذين يختزلون كل حضارات الإنسان إلى الدين،

ويجدون فيه الغنى عن العالمين، وهم في هذا يختلفون عن الإصلاحيين من مفكري الإسلام، فهؤلاء حاربوا الغرب ودعوا إلى اقتباس ما رأوه صالحا من تنظيماته، وكان التحديث قضيتهم، وذلك بالعودة إلى إسلام منفتح على العالم المتقدم ومقتبس من تجاربه وأنظمته<sup>1</sup>.

### التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري:

#### التحول الثقافي والاجتماعي:

إن أي متأمل أو منخرط في المجال الثقافي لا يمكنه إلا أن يستشعر فداحة المسؤولية، وجسامة القضايا والإشكالات التي يملها عليه الواقع الثقافي الاجتماعي ببلاذنا، والتي يجد نفسه أمامها، في أغلب الأحيان، أعزل إلا مما بقي لديه من تراكمات وممارسة ثقافية سابقة، يحاول من خلالها رؤية هذا الواقع أو متابعته، أو التعايش معه، أو طرح الأسئلة الكبرى بصدد، وهو في كل هذه الحالات والأوضاع تنهض أمامه أسئلة وقضايا جديدة لا يمكنه أن يجيب عنها، أو يشتغل في نطاقها بدون تحديد رؤيته للظواهر، وتقييمه للتحولات، من منظور يراعي واقعية هذه

<sup>1</sup> علي أوامليل، سؤال الثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2011، ص76.

التحولات الكبرى، واختلافها النوعي عن الحقب السابقة التي يتشكل فيها وعيه الاجتماعي والثقافي، أو اضطلع فيها بمسؤولية ثقافية ما.

فأمام تحول الشروط المختلفة سواء على الصعيد الدولي أو القومي أو الوطني لا يمكن اعتماد ما تشكل في شروط سابقة في التقييم والتحليل والتخطيط، لأن ذلك سيحجب عنا ملامسة جوهر هذه التحولات، وبعدها عن فهمها الفهم الملائم لها في نطاق الشروط الجديدة والمتغيرة بالطراد.

لذلك ومن منطلق حرصنا على فهم هذه التحولات أولاً، وتحديد طبيعتها ثانياً، نسعى جهد الإمكان إلى مقارنة واقعنا الثقافي بما مكننا من ملامسة جوهر هذه التحولات، والإمساك بها في ذاتها،<sup>1</sup> بعيداً عن أي مصادرة متسرفة، أو محاكمة تقييميه مسبقاً، إن هذه المحاكمة أو تلك المصادرة بقدر ما تجعلنا نطمئن إلى جاهز التصورات المكونة لدينا، تجعلنا أعجز عن انتهاج السبيل المؤدي إلى الفهم الملائم من جهة، وابتداع الطريق الضامن لممارسة ملائمة من جهة ثانية.

1 سعيد يقطين، الأدب والمؤسسة والسلطة - نحو ممارسة أدبية جديدة-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2002م، ص27.

هذه الروح التي تقوم على مبدأ (الملائمة) والتي تدفعنا إلى طرح الأسئلة المغيبة أو المطروحة من منطلق يسعى لمحاولة الجواب عنها، وليس التفرج عليها، والتي تدفعنا أيضا إلى عدم الاطمئنان إلى الأجوبة الموجودة أو المعدة سلفا، هي التي نعتمد في تشخيص واقعنا الثقافي، وتقديم الوسائل المناسبة، والآليات الممكنة من الدخول إليه، والانخراط فيه بوعي جديد ورؤية جديدة. من أجل ذلك نعتمد النقاط التالية أساسا للتشخيص والتخطيط:

- 1- التحولات الكبرى على الصعيد الدولي والقومي.
- 2- محاولة لتشخيص واقعنا الثقافي.
- 3- من أجل ممارسة ثقافية جديدة.

### التحولات الكبرى دوليا وعربيا:

إلى حدود الثمانينات كانت أهم الإسهامات الثقافية والفكرية، الفاعلة والنشيطة والطليلية كلها تتحقق من داخل المنظومة الاشتراكية باعتبارها تمثل الإيديولوجيا العلمية والطليلية. وباستنادها إلى الماركسية وتطويراتها المختلفة في الغرب والشرق باعتبارها رؤية للعالم، ودعوة إلى التغيير والتطوير، وجدت لها، بصورة أو بأخرى، صدى في الفكر العربي الحديث الذي ساهم فيه بالدرجة الأولى مثقفون ينتمون إلى

حركة التحرر الوطني العربية. فحاولوا استلهاهما (نسخها وتطبيقها في الحقيقة) في تحليل الواقع العربي<sup>1</sup>، وفي قراءة التاريخ والتراث، وفي تحديد صورة المجتمع العربي الممكن (أو الواجب الوجود). وكان الوعي الذي تشكل في هذه المرحلة مشتركا، وإن كان مختلفا يطال مجالات الإبداع والفن والفكر ويشكل بصورة أو بأخرى المرجعية المركزية التي يتم الاستناد إليها في التحليل والتقييم، واتخاذ المواقف.

ولعبت القضية الفلسطينية الدور الأساس في تدعيم هذا الوعي بما تمثله من صراع مباشر مع الصهيونية والإمبريالية الأمريكية بما هما التمثيل الأجلى للمنظومة النقيض، والتي تسعى إلى مواجهة أي نهوض عربي يمس المصالح الغربية الرأسمالية في المنطقة. اعتبرت القضية الفلسطينية رأس حربة الصراع مع الإمبريالية ورببتها الصهيونية في القاموس الذي كان متداولاً.

لكن منذ أن بدأت تطرح داخل المنظومة الاشتراكية مسألة الديمقراطية، وما صاحبها مع ظهور البريسترويكا، وما آلت إليه الأمور مع تحطيم جدار برلين، وزوال الاتحاد

---

1 المرجع نفسه ص28.

السوفيياتي، وتوقيع اتفاقيات السلام، وبروز خيار غزة- أريحا أولاً، وما صاحب ذلك منذ توقيع اتفاق السلام، وظهور السلطة الفلسطينية، ونهاية الحرب الباردة وبداية الحديث عن القطب الواحد وبعد ذلك عن (العولمة)، بدأت تظهر بوادر مرحلة جديدة، وعلى كافة المستويات، تنبئ بالقطيعة مع مختلف مقومات مرحلة سابقة.

إننا فعلاً أمام تحول كبير يضع مرحلة بكاملها موضع السؤال (من الخمسينيات إلى بداية التسعينيات). فهذا التحول مس قناعات متجذرة، ورؤيات وأحلاما عديدة كبرى، وطرائق في رؤية العالم وتفسيره، وأشكالا من العمل على تغييره. وكان لزاما أن يحدث هذا التحول رضة ورجة على صعيدي الفكر والممارسة.

يمكن إبراز آثار هذه الرضة في طابع التحول من خلال ما يلي<sup>1</sup>:

(1) إن الفكر، والعمل الثقافي العربي الطليعي كان في مرحلة السابقة ذا مرجعية موحدة أو شبه موحدة. وله مركز توجيه محوري وخلفية محددة. أما في المرحلة الجديدة فسيصبح أمام

1 المرجع نفسه، ص 29.

المرجعيات المتعددة والمختلفة، والتي لا تقدر أي منها أن تكون مركز استقطاب.

(2) إن الممارسة التي كانت ترتكز على المرجعية الموحدة والمحددة ستفقد مركز توجيهها، الشيء الذي سيجعل سؤال: ما العمل؟ وكيف؟ ولأية أهداف من الأسئلة المؤرقة والكبرى، بل إن وقع الرضة كان أكبر من المتوقع فكانت الدهشة أمام ما جرى، ولم يتلها سوى التساؤل الدال: هل فعلا وقع ما وقع؟

كان لهذا التحول أثره الكبير على الصعيد الثقافي والفكري، وصار المثقف يطرح الأسئلة، ويصاب بالذهول أمام هول ما يجري من حوله: فكل القيم والمبادئ والرؤيات التي نذرت أجيال بكاملها لها شبابها، وقوة مطامحها، تنهار أمام الأعين. بل إنها صارت موضع سؤال واستفسار، واستنكار (هل كل التضحيات كانت في غير مسارها الصحيح؟ يقول لسان الحال). وكانت لذلك آثاره الواضحة على الإنتاج والتلقي الثقافي. وبدون النظر العميق في آثار هذه التحولات، والعمل على الوعي بها بالشكل المناسب لا يمكن لصورة التشاؤم إلا أن تستفحل وتستمر، وتدفع في اتجاه العجز التام. ولإبراز هذه التحولات الكبرى، بصورة أوضح، نحاول تجسيدها من خلال تشخيص بعض ملامح واقعنا الثقافي (في المغرب، والصورة لا تختلف كثيرا عن نظيرتها في العالم

العربي)، يعرفه هذا الواقع في ظل هذه الشروط الجديدة،  
لنتمكن من طرح الأسئلة المناسبة، وتقديم بعض المقترحات  
الممكنة لإعادة النظر في كفاءات التحليل والتقويم  
والتخطيط<sup>1</sup>.

### محاولة لتشخيص الوضع الثقافي العام:

إن أي تشخيص كيفما كان نوعه ليس وصفا خارجيا، حتى  
وإن ادعى الموضوعية. إنه موقف وقراءة. وكلما اختلفت  
تشخيصاتنا اختلفت رؤياتنا ومقاصدنا، وعلينا بدءا أن نبين أن  
تشخيصنا يرمي إلى الإمساك بالعناصر الجوهرية التي تسم  
واقعا الثقافي، لأننا نهدف إلى اقتراح رؤية نريدها جديدة للعمل  
الثقافي من أجل التقدم والتطور.

أول مبدأ جوهري يمكننا الانطلاق منه، هو مبدأ التحول.  
فمنذ الثمانينات حصلت تحولات ثقافية كبرى، وأهم سماتها  
تكمُن فيما يلي:

1- الانتقال من العمل الجمعي شبه المنظم والموحد إلى  
العمل المتعدد أو الانفرادي.

1 المرجع نفسه ، ص 29-30.

## 2- الانتقال من الرؤية الموحدة إلى الرؤيات المتعددة.

بصدد النقطة الأولى ارتكز العمل الثقافي إلى غاية السبعينات على أس سياسية يسارية التوجه، وكان المنحى الصراعي-النضالي ذو الطابع<sup>1</sup> الاشتراكي النزعة هو المهيمن، لأنه كان يطبع الممارسة بملامحه المميزة. فهو الذي يوجه مختلف الفعاليات والأنشطة الثقافية من تنظيم القراءات الشعرية إلى الندوات حول القضية الفلسطينية وحركات التحرر الوطني. يظهر لنا ذلك من خلال عمل الجمعيات الثقافية والأندية السينمائية التي كانت تحتضنها دور الشباب، أو في الأحياء الجامعية، أو في المجالات التي كان يصدرها مثقفون أو كتاب أو في المنشورات الشبابية والطلابية.

كان الهم الأساس هو مواجهة الثقافة السائدة والتقليدية، وتأسيس قيم صراعية التزامية بقضايا التقدم والتحرر. فمنذ الثمانينات لم يبق العمل الثقافي مقتصرًا على فعاليات مثقفي الحركة الوطنية الديمقراطية، ويظهر لنا ذلك بجلاء من خلال تجلي أساليب جديدة لجأت إليها فئات من المثقفين ذوي النزوع اليساري الجديد، أو مثقفين لم يجدوا أنفسهم داخل الأحزاب

1 المرجع نفسه ، ص30.

التقليدية كتطوير للعمل الذي كان في السبعينات، وتطوير له بوسائط أخرى في ظل هيمنة القمع. من بين هذه الأساليب: إيلاء العمل الثقافي أهمية قصوى لأنه الأداة الوحيدة للتعبير عن تصوراتهم جماهريا، وإصدار الصحف والمجلات الثقافية التي ترمي إلى الخوض في قضايا مسكوت عنها. فكانت حصيلة هذا التوجه، أن تم الإقدام على محاصرة العمل الجمعي الملتزم (مذكرة وزارة الشبيبة والرياضة)، كما تم منع أربع مجلات مرة واحدة (الثقافة الجديدة، البديل، الزمان المغربي، الجسور) من جهة، ومن جهة ثانية، وفي ظروف لاحقة بدأت تظهر أنواع جديدة من الوسائط الثقافية، مختلفة ومتنوعة عن المرحلة السابقة.

ويظهر ذلك من خلال:

- (1) ظهور العديد من الجرائد الجديدة: ديمقراطية - شعبية - دينية ...
- (2) طبع بعض الجرائد العربية والأجنبية بالمغرب.
- (3) ظهور قنوات تلفزيونية جديدة: 2M / MBC / البارابول / الرقمي / خزانات الفيديو ...
- (4) ظهور الجمعيات الرسمية، وذات الصبغة الوطنية.

(5) ظهور جامعات وكليات جديدة في أغلب المدن الكبرى، وصار لها دور كبير في العمل الثقافي الإشعاعي من خلال الندوات والمنشورات.

(6) ظهور مجالات تقوم أساسا على التخصص (اللسانيات - التربية - الاجتماع - الفلسفة...).

(7) ظهور مؤسسات خاصة عديدة للطبع والنشر.

إننا فعلا أمام تحولات كبرى جعلتنا نقف أمام مرحلة جديدة من تطور المجتمع المغربي، وتتجلى هذه التحولات الثقافية من خلال:

أ. تعدد الوسائط الثقافية وتنوعها، وأهم ما يميزها هو أنها دفعت في اتجاه تقليص البعد الشفاهي الذي كان مهيمنًا في الستينات والسبعينات، وإعطاء أهمية كبرى لما هو كتابي أو بصوري.

ب. ظهور نوعيات أخرى من المثقفين تختلف صورها عن صورة المثقف السابق.

ج. ظهور قيم ثقافية جديدة في الإنتاج والتلقي.

كل هاته التحولات ساهمت في جعل العمل الثقافي ينتقل من العمل الجمعي شبه المنظم والموحد على صعيد الرؤية والتصوير، والذي يقوم به مثقفون لهم انشغالات سياسية

مركزية إلى العمل المتعدد الرؤيات والتصورات، والذي تضطلع به مؤسسات تقوم على التنافس والاختلاف، أو يمارسه مثقفون بمنأى عن مؤسسة ما، وقد تحولوا إلى مؤسسة خاصة أو متخصصة.

وكان من سمات هذا التحول الانتقال من العمل الثقافي كأداة نضالية للتأطير السياسي (هدف مركزي) إلى التنشيط الثقافي الخاضع للحاجات الاجتماعية أو المتطلبات الظرفية أو اهتمامات الجمهور. وسنلاحظ هذا البعد في النقطة التالية:

بصدد المظهر الثاني للتحول نجد العمل الثقافي يتجاوز البعد الموحد على الصعيد الرؤية، أو التصور. فأغلب التيارات لفكرية والسياسية لها منابرها الخاصة، وهي تعبر عن نفسها، وتسعى إلى إبراز ما " يميزها " عن سواها. وصارت الفعاليات الثقافية السابقة تبحث لها عن وسائل جديدة للعمل، وانعكس هذا النشاط الثقافي للفعاليات السياسية اليسارية سلبا، حتى تقلصت أنشطتها، بالقياس إلى فترات سابقة، وبدأت تتعدد وتنوع. ويبرز تعدد الرؤيات هذا فيما يلي:

1) ظهور الخطاب الديني: من خلال وسائط متعددة، جرائد، كتب، أشرطة متنوعة...

(2) ظهور الخطاب الإقليمي: الذي يركز على الخصوصيات المحلية، من خلال الندوات التي تعقدتها الكليات الجديدة مثلا مع مجالس البلدية حول الأقاليم، أو الاحتفاء بالثقافات المحلية (الأمازيغية).

(3) ظهور الخطاب الشعبي: في الصحافة الكاريكاتير والسخرية والفضائح...

(4) ظهور الخطاب الفرنسي: كثرة المنشورات (الجرائد - المجلات ... الندوات) ودور النشر المغربية التي تعنى بنشر الكتاب المكتوب بالفرنسية.

(5) ظهور الخطاب النسائي: من خلال العمل الإعلامي، وتأسيس جمعيات واتحادات نسائية.

إن استعمال (ظهور) بخصوص مختلف هذه الخطابات، لا يعني أنها لم تكن موجودة في مراحل سابقة، ولكنه يرمي إلى تأكيد أن هذه الخطابات صار لها حضور أقوى وأهم مما كانت عليه، وبالأخص في السبعينات التي هيمن لها فيها الخطاب القومي الاشتراكي.

ومجموع هذه التحولات أدى إلى:

- (1) خلق قيم ثقافية جديدة تقوم على التعدد والاختلاف والنسبية.
- (2) خلق أو التجاوب مع جمهور جديد له اهتمامات وتطلعات أخرى.
- (3) خلق أسئلة ثقافية جديدة ما يزال أغلبها معلقا، أو ترهين أسئلة قديمة.

كل هذه المؤديات، لا تعني أن هذه التحولات، أحدثت شرخا جوهريا في بنياننا السوسيوثقافية والاجتماعية. فرواسب المراحل السابقة ما تزال حاضرة بصورة أو بأخرى، لكن طبيعة التحول قلصت من نفوذ وهيمنة القيم القديمة، وإن لم تنجح بعد القيم الجديدة في فرض نفسها. بل إن بعض تلك القيم سيظل عنوان حقبة سوسيوثقافية جديدة بكاملها.

كل هذه التحولات هي التي يمكننا البحث فيها، وقرآتها في ضوء مجموع التحولات الطارئة على الصعيد الوطني والعربي والدولي. من السهولة بمكان اتخاذ المواقف المتسارعة بشأنها، لكن فهمها وتشخيصها بشكل مناسب يتطلب الكثير من البحث والتأمل وإعمال النظر، ولاسيما إذا كان القصد هو (العمل) ضمن سياقها وفي مجراها. وفي نطاق، ونحن بصدد البحث في المسألة الثقافية يجدر بنا أن نتساءل.

من بين الأسئلة التي نطرح: "من هو المثقف حاليا؟"

إن هذا السؤال يفرض نفسه علينا بشكل كبير في سياق هذه التحولات التي نعمل على رصدها. نقصد بدءا بالمثقف المنخرط في المناخ الثقافي سواء كان منتجا أو مشاركا. وإذا كان المثقف في السبعينات هو (المناضل) السياسي في الواجهة الثقافية، فهو صاحب الهم الوطني-الديمقراطي، ويتصف بأن له تصورا محددا للصراع، وله إحاطة ومساهمة في مختلف الفعاليات، ورصد لمختلف الإنتاجات: إنه جمع في صيغة مفرد.

أما المثقف الحالي فهو نقيض السابق. يطرح أسئلة كبرى، وغير قادر على مواكبة ورصد كل الإنتاجات والفعاليات. وكان من نتائج هذه التحولات ظهور فئات جديدة من المثقفين تميل أكثر، إلى أن يكون لها موقع داخل المجتمع أو أجهزة الدولة، وهي تتشكل من فئات تجمع بينها هموم معرفية محددة (علمية - اقتصادية - دينية - لغوية...) أو تسعى إلى تأطير نفسها والتعبير عنها خارج المؤسسات الحزبية أو الرسمية.

ومن القيم الناجمة عن هذه التحولات:

1) العمل الثقافي رأسمال يجب استثماره ماديا، ويعني هذا تقلص البعد النضالي التطوعي الذي كان عنوان المرحلة الفائتة.

(2) يستدعي القيام بالعمل الثقافي توفير بنية تحتية ومالية بالدرجة الأولى.

(3) الحق في الاختلاف والمنافسة لا الصراع والإلغاء.

هذه القيم، وأخريات صارت تغذيها الصحافة العربية والمراكز الثقافية والصحف الأجنبية، وما صارت تضطلع به الجمعيات ذات النفع العام. وكان من نتائج مختلف هذه التحولات، وما صاحبها من ظهور تصورات وفئات وقيم ثقافية مختلفة، أن ظهر المبدأ الثاني وهو: سيادة روح التشاؤم أو التشكيك في قيمة العمل الثقافي بوجه عام لدى فئة واسعة من المثقفين الذين كان لبعضهم حضور ما في المرحلة السابقة.

وبالمقابل نجد فئة أخرى تسعى جاهدة لفهم ما يجري من تحولات، والعمل بمقتضاها بهدف خلق التصور، والأداة المناسبة للعمل، أو الاشتغال بمشروعات محددة للبحث كشكل من الممارسة التي تمكن المثقف من لعب دور ما بحسب إمكاناته واجتهاداته في انتظار ما يمكن أن يتبلور من ركائز للتطوير والعمل.

للفعل في هذه التحولات وما نجم عنها يحق لنا أن نرى أن أي ممارسة ثقافية كيفما كان نوعها تسعى إلى الحفاظ على القيم

الاجتماعية السائدة، أو المتحولة، ما دامت تنجح في تحقيق نوع من (التوازن) الاجتماعي، وتدفع به إلى تحصيل مصلحة تاريخية معينة، وإما أنها تسعى إلى خلق قيم جديدة بهدف تحويل ما هو سائد ليتطور في آفاق مختلفة تخدم التحولات المرتقبة، وتواكبها بصورة عملية وبناءة.

وفي كل هاته الحالات، يطرح السؤال حول جوهر العمل الثقافي المنشود: ماذا نريد؟ ولماذا؟ وبأي منظور؟ هذا السؤال (الأسئلة) يترابط مع مختلف الأسئلة المطروحة حتى على الأصعدة الاجتماعية والسياسية.

للجواب عن مثل هذه الأسئلة علينا:

- (1) أخذ التحولات المشار إليها بعين الاعتبار.
- (2) تجاوز التصور الثقافي الذي اشتغلنا به في المراحل السابقة.
- (3) إيلاء العمل الثقافي أهميته التي يستحق بعيدا عن أي مصلحة ذاتية كيفما كان نوعها، وبعيدا عن أية رؤية ضيقة مهما كانت آفاقها.

### من أجل ممارسة ثقافية جديدة:

يرتهن تركيزنا على نعت (الجديد)، سواء اتصل بالروح أو الوعي أو الرؤية أو الثقافة، إلى دلالة خاصة نجملها في أن الجديد يعني (مطابقة) التحولات الجديدة، أي أنه يرمي إلى ضرورة وضع التحولات المختلفة في سياقها الخاص، وبهذا يكتسب معنى (الثقافة الجديدة) دلالة متميزة. إنها الثقافة، أو العمل الثقافي الذي يرمي إلى تجديد الرؤية السابقة وشكل الممارسة السابق الذي لم يبق ما يسوغ استمراره.

في هذا الإطار، وفي ضوء الأسئلة التي طرحنا نذهب إلى أن:

- (1) التفكير الجماعي في مجمل القضايا الثقافية – الاجتماعية ضرورة قصوى.
- (2) دعم هذا التفكير بممارسة جماعية منظمة ومسئولة من مستلزمات الحقبة الجديدة.

إن دخولنا القرن الحادي والعشرين لا يمكن أن يتم بدون الطموحات الجديدة المبنية على رؤية جديدة وممارسة جديدة. وعلينا، في سبيل بناء تصورنا الثقافي الذي نتحرك في ضوئه. لقد فرضت التحولات الجديدة التي عرفها واقعنا (المغربي والعربي

على السواء) منذ الثمانينات ظهور عدة خطابات بدأت تنشط من خلال وسائطها التعبيرية الخاصة. هذه الخطابات هي:

- (1) الخطاب الفرنكوفوني.
- (2) الخطاب الخصوصي أو المحلي (الأمازيغي) والشعبي (صحابة الفضائح)
- (3) الخطاب الديني (الأصولي-التصوفي).
- (4) الخطاب النسائي.

نشطت هذه الخطابات على إثر تراجع الخطاب القومي والاشتراكي، وصار كل خطاب من هذه الخطابات يفرض بعض مقوماته على الساحة الثقافية بصورة وأشكال متعددة. كما بدأت خطابات أخرى تلوح في الأفق حقوق الإنسان، البيئة، المجتمع المدني (...).

إن التعامل مع واقع متحول وبخطاب له مميزاته وإشكالياته الخاصة من الأوليات التي علينا التفكير فيها بعيدا عن أي مصلحة ضيقة، أو رؤية غير بعيدة المدى لطوابع هذه التحولات وإفرازاتها. كما أن أي خطاب كيفما كان نوعه، وهو يتعامل مع هذه التحولات لا بد له من مراعاة الثوابت والقيم العامة، والمكتسبات التي تحققت في صيرورة تطور المجتمع المغربي، إذا ما أراد فعلا أن يسهم من خلال تصوره الخاص في بناء رؤية

مغايرة للممارسة والعمل، وإلا فإن كل الممارسات التي يتم انتقادها اليوم، ستتكرر مؤدية بذلك إلى التراكم السلبي.

إن أهم ثوابت المجتمع المغربي التي علينا ان نضعها في الحسبان يمكن تجسيدها فيما نحن بصدده من خلال:

### 1- الانفتاح:

فالمغرب بحكم موقعه وتاريخه محكوم بالانفتاح على العالم. وفي المراحل التي ينغلق فيها المغرب على ذاته يعرف التراجع. كما أن (الانفتاح) من مكتسبات الشعب المغربي، وهو لا يعني (التبعية) لجهة ما من العالم، أو الانفتاح على جهة ما دون أخرى. وفي هذا السياق يمكن القول بأن الفرانكفونية حصر لانفتاح المغرب على (جهة مركزية) محددة. ولا بد هنا من التمييز بين الفرانكفونية ك (نزعة سياسية)، والانفتاح على الثقافة الفرنسية.

إننا مع الانفتاح وضد الانغلاق أو الانفتاح الضيق النزعة الذي يجعلنا ندور في دائرة التبعية الجهوية.

### 2- التنوع:

روافد الثقافة المغربية متعددة بتعدد مكونات المجتمع المغربي. يمكن طرح الخصوصيات الثقافية والاهتمام بها،

والبحث فيها، لكن التنوع الثقافي هو عامل إثراء وإغناء للثقافة الوطنية، وليس نزعات ضيقة. فإذا كانت الخصوصيات ظاهرة تاريخية فهي بمثابة العناصر التي يلحمها كل: هذا الكل هو الهوية المغربية ذات البعد العربي الإسلامي الناظم. أما الحديث عن خصوصيات متعالية عن التاريخ والزمان، وذات مميزات لا تاريخية، فليست سوى اختزال بسيط. إن قضية التنوع لا يمكن طرحها إلا في أفق (الانفتاح) وليس في نطاق (الانغلاق)، وفي نطاق (الحوار) مع باقي المكونات وليس في (إلغائها).

### 3- الحوار:

من المكونات الثابتة للمجتمع المغربي المكون الديني (الإسلام)، قد تختلف الدراسات والاجتهادات المؤسسة على قاعدة الخطاب الديني. لكن إذا لم يكن أساس الاختلاف مبنيا على الحوار والعمل به تحول الأمر إلى الانغلاق الضيق على الذات الذي يمكن أن يتولد عنه غير (ادعاء) امتلاك الحقيقة المطلقة، وما ينجم عنه من إقصاء وإلغاء للأخر. إن الحوار المؤسس على قاعدة الاختلاف والدعوة إلى الإيمان به من السمات الأساسية التي علينا الانطلاق منها، وسيفرض هذا علينا بناء تصور جديد في تشخيص وفهم آليات واقعنا الذي نعيش فيه بعيدا عن أي انغلاق أو انزواء.

إن ثوابت المجتمع المغربي لا يمكن التعامل معها بالقبول أو الرفض المجانيين. وعندما نحدد قواعد التعامل معها على قاعدة الانطلاق منها باعتبارها المقومات المحورية، نكون قد عملنا على تجسيد وعينا بأهم الأسس في الآن نفسه. وهذا الرهان هو ما علينا الوعي به، وتمثله جيدا، والعمل بناء على مقتضياته وفق رؤية مرنة تقوم على الوعي بالاختلاف، وثقة صارمة في إمكانية التطور، بعيدا عن أي تصور متشائم أو مستعجل، لأن التشاؤم والاستعجال ينهضان على أساس (الرغب) في العمل، وليس على (الإرادة) المبنية على (المعرفة) بتدبير الشؤون، تلك الشؤون التي تهتم المجتمع المغربي برمته، وليس جماعة أو فئة بعينها كيفما كانت نظرتها إلى ذاتها.

هذه رؤوس أقلام حاولنا من خلالها تشخيص واقع قيد التحول، وحاولنا الإمساك ببعض مقوماته، وطرح بعض الأسس لفهمه، وبعض القضايا للعمل فيه، من منظور يدفع اتجاه التطور، وأي نقاش يحقق تقدما في الفهم، ويقدم إمكانيات للفعل الإيجابي يعتبر تأسيسا لرؤية وممارستين جديدتين، نأمل أن نتجاوز بهما التصور السابق للمسألة الثقافية بهدف التقدم والتطور اللذين يساهم في رفعة الوطن وسعادة مواطنيه.

## أهداف المثاقفة العالمية في الأدب:

يؤدي الأدب دورا عالميا في عمليات التأثر والتأثير بين شعوب العالم لتحقيق الأهداف الآتية<sup>1</sup>:

- التخفيف من حدة الاتجاه الشوفيني لأي أدب قومي يرتبط بمصالح سياسية وايدولوجية اقتصادية.
- التعرف على ثقافات الأمم الأخرى وعاداتها وتقاليدها ومنجزها الحضاري وأساليب تعبيرها كمصدر من مصادر المعرفة التي تغني طلبها أديبا كان أو غير أديب.
- يمكن أن يلعب دور الوسيط الإنساني المشترك في تعزيز قيم التسامح الإيماني والمحبة والتفاهم بين الشعوب، إلى حدّ يصبح فيه الأدب إحدى الوسائل المهمة في التخفيف من سلطة الاقتصاد والسياسية في مظاهرها السلبية التي تسعى للمهيمنة على مقدرات الشعوب الضعيفة.
- يحقق الأدب في علاقته العالمية التبادلية فرص احترام ثقافة الآخر والتساوي معه، أو في الأقل التوازي، مع ضرورة التمسك بحق الاختلاف وضرورته، لأن الاختلاف يؤدي إلى الجديد والتميز والإضافة النوعية.

1 راشد عيسى، وساطة الشعر في التسامح الديني والمثاقفة العالمية، مؤسسة جائزة عبد العزيز آل سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2011م، ص20.

- تخصص الجوانب التاريخية الفكرية والمعرفية في الأدب عن طريق استلهاهم ثقافات الأمم الأخرى وتوظيفها لاستنتاج دلالات وآفاق جمالية جديدة.
- تؤثر العلاقات الثقافية والتبادل الأدبي إيجابيا في إزالة الحواجز العرقية والكونية بين الشعوب، وربما تؤدي إلى التخفيف من التعصب الديني والحروب وتنفي قضايا الغطرسة والشعور بالأفضلية عند شعب ما تجاه شعب آخر.
- يعزز الأدب مفهوم (العالم قرية صغيرة) وذلك من النواحي والعلاقات الإنسانية المتبادلة التي تحترم خصوصيات كل ثقافة من غير هيمنة سياسية أو اقتصادية.
- يؤدي الأدب دورا مهما في ثقافة الجمال التي تناضل ضد أشكال القبح الإنساني في العالم، (التمثل في الحروب والإقصاء التعصبي).
- تخفف المثاقفة الأدبية العالمية من مظاهر الصراع الحضاري القديم بين الشرق والغرب.
- يسهم الأدب في تنمية صور التقارب الاجتماعي بين الشعوب، ويلبي حاجات إنسانية متعددة.
- تعمل المثاقفة العالمية على انتشار الأدب الجيد في مختلف أنحاء العالم بشكل واسع وسريع ومؤثر وفاعل.

- تؤدي المثاقفة العالمية إلى نشر ثقافة احترام الهوية والخصوصية الثقافية في البيئات الإنسانية كلها.
- يؤدي التأثر والتأثير بين آداب الأمم إلى ابتكار أساليب إبداعية تنسجم وطبيعة التنمية الأدبية والفكرية والنقدية في العالم، فنهر الإبداع العالمي المجرى، يسقي أراضي القصة والقصيدة والرواية والمسرح، ويتدفق بحرية كاملة دون حسابات جغرافية أو دينية أو سياسية، فثمار الخصب الإبداعي العالمي ملك للبشرية كلها.



## قائمة المصادر والمراجع:

### باللغة العربية:

- 1) ادوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، رؤية للتوزيع والنشر، ط1، 2006م.
- 2) اموندليتس، كلود ليفي ستراوس، البنيوية في مشروعها الأنثروبولوجي، ترجمة: نائر ذيب، دار الفرقد، دمشق، سوريا، ط2، 2010م.
- 3) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2005م.
- 4) أنطوان سيف وعي الذات وصدمة الآخر في مقولات العقل الفلسفي العربي، دار الطليعة، بيروت 2001
- 5) برهان غليون اغتيال العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية و التبعية المركز الثقافي العربي ط1، 2012
- 6) تسيير شيخ الأرض، الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي، دار الوحدة السورية، سورية، 1989م.

(7) حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر،  
2012م.

(8) دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية،  
ترجمة: د. منير السعيداني، مراجعة: د. الطاهر لبيب، المنظمة  
العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، مارس 2007م.

(9) راشد عيسى، وساطة الشعر في التسامح الديني  
والمثاقفة العالمية، مؤسسة جائزة عبد العزيز آل سعود  
البايطين للإبداع الشعري، الكويت، 2011م.

(10) سارة بوزرزور، الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر،  
المجلد 09، العدد 07، منشورات جامعة بشار، الجزائر، 2017م.

(11) سعيد يقطين، الأدب والمؤسسة والسلطة - نحو  
ممارسة أدبية جديدة-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،  
ط1، 2002م.

(12) سليم دولة، الجراحات والمدرات، المؤسسة  
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2،  
1993م.

(13) السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، مصطفى الحجازي، باب الفاء، فصل الثاء والفاء، مطبعة حكومة-كوبي، 1996م.

(14) عبد الإله بلقزيز، إشكالية المرجع في الفكر العربي المعاصر، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1992م.

(15) عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، دت، دط.

(16) علي أواميل سؤال الثقافة المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 2010

(17) كلود ليفي ستراوس، الأنثروبولوجيا البنيوية، ترجمة: مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977م.

(18) كلود ليفي ستراوس، الفكر البري، ترجمة: نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1987م.

(19) لويس دو ليو، الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، ترجمة الدكتور عادل العو، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1982م.

(20) مالمينوفسكي وراذ كليف براون، ضمن: نظرية الثقافة، ترجمة د. علي سيد الصاوي، مراجعة أ.د. الفاروق زكي يونس، سلسلة عالم المعرفة، عدد 223، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، يوليو 1997م.

(21) محمد محفوظ، الحضور والمثاقفة (المثقف العربي وتحديات العولمة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000م.

(22) محي الدين صابر، قضايا الثقافة العربية المعاصرة، تونس 1983م.

(23) هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة: حاتم حميد محسن، دار كيون للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 2010م.

## باللغة الفرنسية:

- 1) Melville Jean Herskovits, Les Bases de l'Anthropologie Culturelle, Maspero, Paris, 1967.
- 2) Ralph linton, Les Fondeurs culturels de la personnalité, paris, dunod, 1959.



## فهرس

5	تقديم
9	مفهوم المثاقفة وأشكالها:
10	الثقافة والمثقف والمثاقفة وحدود المصطلح:
10	مفهوم الثقافة:
23	المفهوم العالي للثقافة:
25	المنظور البنيوي للثقافة:
32	المنظور الوظيفي للثقافة:
36	الثقافة والهوية:
43	أ- الثقافة العضوية:
44	ب- وضعية أنتيلجنسيا:
45	نقد الثقافة:
47	مفهوم المثقف:
49	نقد المثقف:
52	من الانفعال إلى الفعل
53	وبكلمة
53	الإبداع
55	مفهوم المثاقفة (Acculturation):
61	التناسج الثقافي:
69	صدمة المثاقفة:
70	الولوج إلى الحاضر:

- 75.....1- صناعة الوعي:
- 76.....2- المساهمة في صناعة الإنجاز:
- 77.....3- المحافظة على الإنجاز:
- 78.....4- الإنفتاح والتفاعل:
- 80.....5- تأكيد وإبراز هوية الوطن والمجتمع:
- 81.....6- تنمية المعرفة:
- 83.....الأمن الثقافي:
- 87.....التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري:
- 87.....التحول الثقافي والاجتماعي:
- 89.....التحولات الكبرى دوليا وعربيا:
- 93.....محاولة لتشخيص الوضع الثقافي العام:
- 103.....من أجل ممارسة ثقافية جديدة:
- 105.....1- الانفتاح:
- 105.....2- التنوع:
- 106.....3- الحوار:
- 108.....أهداف المثاقفة العالمية في الأدب:
- 112.....قائمة المصادر والمراجع:
- 112.....باللغة العربية:
- 116.....باللغة الفرنسية: